المشروع الحضاري بصراحة

جمال البنا

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين

لا جدال في أهمية وضرورة المشروع الحضاري، ولكن المشكلة فيه هي أن الذين يتصدون للكتابة عنه عادة ما يكونون من أساتذة الجامعات أو الخبراء في التنمية [الاقتصادية غالبًا] وهؤلاء في الحقيقة هم آخر من يمكن أن يستوعب المشروع الحضاري، إذ تغلب عليهم النزعة الأكاديمية التي تبعدهم عن الواقع، وتحيز التخصص الذي يحول دون الرؤية الشاملة. ومَنْ من هؤلاء يمكن أن يلمس نبض "المصري" الذي يمثل روح مصر، وقد قطعتهم دراساتهم ومناصبهم ومستوياتهم الاجتماعية عن ذلك؟ ومن يستطيع أن يستوعب الأبعاد الاجتماعية والدينية والسياسية لمصر أو الجذور الحضارية لها من أقدم العصور في رؤية شاملة متكاملة؟

وقد يكتب السياسيون وبعض المسئولين في أحزاب - وهؤلاء عادة لا يعدو أن يكونوا من حزب الحكومة. وكفى! أو من اليساريين الذين ضللتهم الثقافة الاشتراكية وأفقدهم المران الفكري حرية الإبداع والأصالة وصدق الرؤية. كما قد يكونون من الذين يطلقون على أنفسهم دون حياء "الناصريين".

من أجل هذا كتبنا هذا الموجز لنقدم المشروع الحضاري المطلوب بصراحة وبتحرر تام من الارتباطات والتحيزات والانتماءات التي تحول دون أن يكون المشروع ممثلا للحق، كل الحق، ولا شيء إلا الحق.

للحقيقة، ولمصر، ولجيل يَخْلُص من الأوزار التي ارتكبها آباؤه وجنوا بها عليه، نقدم المشروع الحضاري.

جمال البنا

جمادى الآخر 1416هـ/نوفمبر 1995م

الفصل الأول

الحضارة بصفة عامة

الحاجة إلى مشروع حضاري

هناك إحساس عميق يتملك المفكرين بالحاجة إلى مشروع حضاري محدد المعالم يكون بمثابة الإطار الذي يرسم السياسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ويكفل لها الوحدة والانتظام ويحول دون الانحراف أو الخطأ أو الضياع أو التسيب. وهي الظواهر التي تفشت في المجتمع المصري من الشارع حتى أعلى المؤسسات، وأدت بنا إلى التخبط والوقوع في أخطاء جسيمة سيكون لها آثار بعيدة المدى على مستقبل البلاد لأنها تعالج الأخطاء في الأسس الاقتصادية القائمة بحلول أكثر إيغالا في الخطأ. والبعد عن الصواب. بقدر ما تتمسك بالأوضاع السيئة في المجال السياسي من انفراد بالسلطة واستئثار بالحكم وعزوف عن القانون وكبت للحريات.. الخ ما ورثناه عن حكم 23 يوليو.

وبقدر الحاجة الماسة إلى هذا المشروع بقدر ما كانت سطحية المعالجات التي طرحت. وبقدر ما كان تأثر هذه المعالجات بالمصالح والأوضاع أو الموروثات.. الخ مما أبعدها عن المعالجة الموضوعية العميقة.

وهذه محاولة لاستكمال هذا النقص.

الأزمة أزمة حضارية

الأزمة التي نعانيها هي أزمة حضارية. إنها ليست أزمة "فلوس" فلم تكن مصر أكثر اكتظاظًا بالأموال في حياتها الحديثة مما هي الآن. وآية ذلك عشرات الصفحات الكاملة في الجرائد اليومية عن المدن السياحية، والشقق التي تعرض بعشرات الملايين من الجنيهات للشقة الواحدة، والعربات التي يبلغ ثمن الواحدة منها المليون جنيه. إن الطلب على هذه الشقق والعربات تجاوز المعروض! وتوجد قائمة انتظار بالنسبة للعربات. أما الأموال المدخرة في الخارج فإن تقديرها يتفاوت ما بين 80 و 100 مليار دولار.

أما المعونات التي تدفقت على البلاد فقد قيل بالحق أو بالباطل إنها أضخم ما قدمه مشروع مارشال لإعمار أوربا وبالذات ألمانيا بعد أن خربتها الحرب العالمية الثانية، وقيل إن جزءًا كبيرًا منها ذهب في الجيوب.

وقلما تخلو صحيفة يومية وأسبوعية من أخبار السفه والتبذير في مناسبات أعياد الميلاد أو حفلات رأس السنة والكريسماس حيث تبلغ زجاجة الخمر المعتقة ثلاث آلاف جنيه أو أنباء المفلوكات الروسيات اللائي كن يعانين المجاعة فجئن إلى مصر كراقصات، وأصبحت الساعة الواحدة لكل منهن بآلاف الجنيهات أو الراقصة التي قالت إنها لو وقفت على أموالها لشاهدت زامبيا!!!

فالأزمة إذن ليست أزمة "فلوس" أو فاقة.

وليست الأزمة أزمة معرفة أيضًا. على أهمية المعرفة والثقافة. إن لدينا 15 جامعة أو أكثر،ولدينا عشرات أو مئات الألوف من الخريجين العاطلين لا يجدون عملا يستثمرون فيه معارفهم ويذهب كل ما تعلموه وكل ما أنفق عليهم أدراج الرياح، وهناك انفصال كامل ما بين البحوث وما بين الصناعة، وتوضع البحوث في الأدراج كما تئد البيروقراطية مواهب النابهين من علماء مصر حتى تسنح لهم فرصة الفرار

بمواهبهم إلى الدول الأخرى الـتي تقـدرها وتـدفع لهم الأمـوال الطائلـة وتفتح أمـامهم وسائل البحث وتضفي عليهم التقدير والاحترام.

ليست الأزمة أزمة فلوس أو معرفـة على الأهميـة الـتي لهمـا، وقـد يعـزز هـذا أن الأزمة الحضارية تمسك بخناق المجتمع الأوربي/ الأمريكي أيضًا على كثرة ما لديـه من أموال وثروات، وعلى أنه وصل إلى آخـر مـدى في التقـدم العلمي والتكنولـوجي. إنـه يعاني من أزمة حضارية حادة. والخلاف ما بين أزمتنا الحضارية وأزمتهم هـو أن أزمتنـا أزمة ضياع وتسيب، وأزمتهم أزمة انحراف وتضخم.

ذلك أن الـثروة وهي نعمـة عظمى، والمعرفـة وهي أبـرز مـا يمـيز الإنسـان يمكن عندما يصلا إلى درجـة معينـة في غيبـة الضـوابط أن يتحـولا إلى نقمـة، فيغـري المـال الكثير بالسفه والتبذير والاستغراق في الشهوات، ويـؤدي العلم والمعرفـة إلى الغـرور والاستعلاء وقـد علمنـا القـرآن الكـريم **إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّآهُ اسْـتَغْنَى**   **وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ** **قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُـهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي**.

وليس معنى هذا أن الثروة والعلم نقمتان. إنهمـا نعمتـان عظيمتـان ولكن على أن يسـتخدما في الخـير لا في الشـر وبالقصـد لا بالإسـراف وعندئـذ يحققـان الغـرض المشروع لهما وهما وسائل وليسا غايات. وعندما يعدا غايات بحيث يراد المـال لمجـرد الاكتناز ولمراكمة الثروة، ويراد العلم للعلم كي يقال لصاحبه إنه عالم فعندئذ يمكن أن يتطرق الفساد إلى الثروات وإلى المعرفة.

إن الثروة والمعرفة ليسا هما لب وجوهر الحضـارة ولكنهمـا الوسـائل الـتي يمكن للحضارة أن تحقق بهـا جوهرهـا فهمـا كمـا قلنـا وسـائل وليسـت غايـات. فلكي يمكن للحضـارة أن تتحقـق لا بـد من مسـتوى معين من الـثروة والمعرفة؛ لأنـه قلمـا يكـون للجائع أو المحتاج إرادة أو حرية، ولا يمكن للجاهل أن يميز بين الخطأ والصواب فلا بـد من الثروة والمعرفة ليمكن تحقيق الحضارة.

الحضارة قِيَم:

إذا لم تكن الثروة والمعرفة هما لب الحضارة فما هـو لب الحضـارة إذن، ومـا هـو المضمون الحقيقي لمفهوم الحضارة؟

الحضارة قيم ومثل ومبادئ كالخير والعدل والحرية والجمال. هـذه القيم هي الـتي تُكَوِّن في الفرد الضمير، وفي المجتمع القانون، وبذلك تكفل حسن سير الفرد وانتظام سير المجتمع.

تصور فردًا بدون ضمير.. ما قيمته؟ إنه يلهو ويتمتع ويأكل كمـا تأكـل الأنعـام، وقـد يكون حاكمًا يستعبد شعبه أو رئيسًـا يسـتغل مرءوسـيه أو رجـل أعمـال واقتصـاد يجـر الخراب على ملايين الناس حتى يحقق القناطير المقنطرة من الذهب والفضة لنفسه.

وتصور مجتمعًا بدون قانون كيف يمكن أن يأمن فيه الناس بعضـهم بعضًـا؟ وكيـف يمكن أن تتم المعاملات بينهم؟ وما هو الصعيد المشـترك الـذي يتلاقـون عليه؟. إذا لم يكن هناك قانون وعرف فلا يمكن للعشرات فضـلا عن الملايين أن يتعايشـوا في يسـر وسلام.

هذا هو المفهوم الحقيقي للحضارة وهـو وحـده الـذي يحقـق السـعادة والانسـجام والسلام والطمأنينة والأمن في المجتمـع. وبقـدر تأصـل وتعمـق هـذه القيم في نظـام المجتمع وفي نفوس أفراده بقدر ما يعد هذا المجتمـع متحضـرًا ويعـد الفـرد متحضـرًا، حتى ولو تضاءلت مستويات الثروة والمعرفة.

وتعطل هذا الجوهر الثمين للحضارة هو الذي نغص على أوربا عيشها وجعلها لا تهنأ بما وصلت إليه من ثروات ومن معارف، بل جعل من هذه الأموال والمعـارف مشـكلة ووسيلة للاستشراء والمطامع، وأفسح المجال أمام الجريمـة وأمـام المخـدرات وأمـام الاستمتاع الجنسي الطليق، وهي المشكلات التي قضت على سلام المجتمـع الأوروبي الأمريكي وجعلته يتخبط وسطها لا يخلص من واحدة إلا ليقع في الأخرى.

آفة القيم هي الذاتية:

وقد يسأل سائل كيف تعجز أوربا بكل علمائها وفلاسفتها وجامعاتها أن تستكشف الخطأ أو تستدرك القصور. والرد أن النقص الأعظم في القيم التي توصلت إليها المجتمعات الأوربية/ الأمريكية هو طابع الذاتية الذي يكون على حساب الموضوعية. وليس هناك مفر من هذا النقص بل إنه في صميم طريقة التوصل إليها. فعندما يراد، مثلاً، وضع قانون، يعهد به إلى مجموعة من الخبراء أو إلى هيئة تأسيسية، وهؤلاء الخبراء أو الهيئة التأسيسية من طبقة معينة ولهم مصالح معينة، وقد نشأوا في مناخ معين، فلا بد أن يأتي القانون الذي ينتهون إليه متأثرًا بهذه الأوضاع كلها. ومن هنا كان القانون الروماني يهدف إلى تحقيق سيادة روما على العالم ويعطي الرومانيين حقوقًا ويحرم غيرهم منها. وعندما وضع نابليون قانونه المشهور فإن هذا القانون كان تعبيرًا تامًا عن مصالح "البرجوازية" الصاعدة والرأسماليين وأصحاب الأعمال، وعانى منه العمال والطبقات الفقيرة الويلات. وأخيرًا فعندما وضع ستالين في ثلاثينيات القرن دستور الاتحاد السوفيتي فإنه جعل من الحزب المرجعية العليا والهيئة التي تقرر الخطأ والصواب.

والأوربيون والأمريكيون يؤمنون بالحرية داخل بلادهم ويلحظون كرامة الفرد.. الخ. ولكنهم لا يؤمنون بذلك بالنسبة لبقية الشعوب ولا يستشعرون غضاضة من هذه المفارقة لعدم موضوعية هذه القيم لديهم.

من أجل هذا لم تكن هذه القيم فيصلا موضوعيًا ولم تكن "القاضي" المحايد النزيه الذي يفصل فيما يشتجر بين الناس من خلافات، ولكن "المحامي" الذي يدافع عن مصالح موكليه على وجه التعيين حتى لو تم ذلك ــ كما يحدث دائمًا ــ على حساب الآخرين.

القيم الموضوعية من الله وحده:

ومن الواضح أن الأمر لا يقتصر على المجتمع الأوربي والأمريكي بالنسبة لذاتية القيم. إنه يقع في كل المجتمعات وليس هناك سوى مخلص واحد. هو أن تأتي هذه القيم من جهة فوق مستوى القصور الإنساني والإغراض الفئوي أو الطبقي أو القومي.. الخ، وليس هنا من يتحقق فيه هذا سوى الله تعالى..

فالله تعالى هو أصل الموضوعية الكلية والكمال المطلق، وهو أصل القيم والمثل العليا ومنه وحده يمكن أن تأتي القيم الموضوعية.

والله تعالى الذي خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه وخلق الأكوان ووضع للمجتمع "سننًا" لا تتغير ولا تتبدل. يُنَزِّل في كتبه القيم التي يتوفر لها الموضوعية، وآخر وأمثل صورة لهذه القيَم هي ما نجده في القرآن الكريم الذي يحض على الخير والتقوى والسلام والعلم والفكر والذي تتسم قيمه بالموضوعية، فهو يسوي بين الناس جميعًا من ذكر وأنثى ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ فلم يقل إن العرب أفضل الناس ولم يقل كما قال فرجيل "أيها الروماني تذكر أنك خلقت ملكًا"، أو كما قال البريطانيون "سودي يا بريطانيا واحكمي" وحتى المسلمين فإنه اشترط في كونهم "خير أمة" أن يأمروا بالمعروف وينهى عن المنكر ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة. وتحدث عن الرسول كـ "بشر مثلكم" وتوعد زوجات الرسول ضعفين من العذاب إذا ارتكبن فاحشة مبينة. وقال محمد كلمته المأثورة "لو أن فاطمة بنت محمد سرقت، لقطع محمد يدها".

إن القيَم القرآنية تمثل الموضوعية الكاملة فضلا عما تتسم به من نبل وسمو. وهذه القيم هي التي جعلت من القبائل العربية المتناحرة أمة تحمل الكتاب والميزان. وهي التي أوجدت الحضارة الإسلامية التي أشرقت على العالم كله، وظلت بقايا منها حتى بعد تحلل المجتمعات الإسلامية وتدهورها لأسباب لا يتسع المجال لشرحها.

القيَم الموضـوعية إذن لا توجـد إلا في الأديـان لأنهـا مُنزَّلـة من اللـه تعـالى أصـل الموضوعية المطلقة، وهذه في الحقيقـة هي مسـاهمة الأديـان في تقـدم المجتمعـات وإنقاذها من حكم الطواغيت أو الخرافة أو الاستغلال، وهو موضـوع لا نجـد حـديثًا عنـه في الكتابات الأوربية لأن أوربا لم تعرف الأنبياء ولا الدين السماوي، وما العلمانية التي تفخر بها إلى إقصاء المسيحية من عالم السياسة والاقتصاد والاجتماع وتحديـد إقامتهـا في الكنيسة التي لا تفتح إلا لمدة ساعة يوم الأحد من كل أسبوع.

إن التعتيم على الدين ودور الأنبياء في تاريخ الإنسانية الذي اتبعـه الفكـر الأوربي ـ لمـا أشـرنا إليـه من ضـحالة الـدين في أوروبـا أدى إلى تركـيز الأهميـة في الحكـام السياسيين والقادة العسكريين أمثال الإسكندر وقيصـر وأغسـطس ونـابليون ثم لـينين وستالين وهتلر الخ... ممن استعبدوا الجماهير. وخدعوها وزيفوا عليها الحقائق وأقاموا أمجادهم على السيف والنار، وإذا كانت هذه السياسة تتفق مع المجتمع الأوروبي الذي لم تظهر فيه الأديان أو يقم فيه الأنبيـاء بـدور، فهـو أمـر غـير مفهـوم في المجتمعـات العربية التي يكون الـدين فيهـا هـو قاعـدة حياتهـا وأصـل ضـميرها. وأدى التعـتيم على الدين إلى هذه التشوهات البالغة، والحـيرة والضـياع الـتي تتملـك المجتمعـات العربيـة اليوم.

الفصل الثاني
القيم الإسلامية في قبضة التقليد

الآن وقد عرفنا أن الأزمة التي نمر بهـا في حقيقتهـا أزمـة حضـارية وليسـت أزمـة فلوس أو معرفة، وتبيَّنا أن جوهر الحضارة ليس الـثروات أو العلـوم؛ "لأن المجتمعـات الأوربية التي بلغت أعلى مستوى فيها لديها أزمـة حضـارية خانقـة"، وإنمـا هـو "القيم" كالخير والحرية والعدل والسلام والحب والجمـال... الخ، واكتشـفنا أن آفـة هـذه القيم هي "الذاتية" التي يختلـف مضـمونها من دولـة إلى دولـة ومن عهـد إلى عهـد ويقضـي على موضوعيتها. وانتهينا أخيرًا إلى أن القيم الموضوعية لا يمكن أن تـأتي إلا من اللـه تعالى، وأن أمثل هذه القيم هي ما جـاء بـه الإسـلام في القـرآن الكـريم، وبهـذا أخـذنا فكرة عامة عن الأزمة الحضارية وعن مضمون الحضارة.

وننتقل الآن بالقضية إلى المجتمع المصري، وهو مجتمع إيماني من أقدم العصــور، منه انبثقت الأديان وتَكوَّن الضمير، وظهرت فكرة الله تعالى وسط ضـباب وغشـاوات، ثم واصلت مسـيرتها حـتى وصـلت أخـيرًا إلى الإسـلام، وكـان يفـترض أن تـؤدي القيم الإسلامية إلى النهضة بالمجتمع وتحول دون وقوع "الأزمة الحضارية".

القيم الإسلامية في قبضة التقليد:

وكان يمكن أن يتحقق هذا لولا أن القيم الإسـلامية الـتي جـاء بهـا القـرآن الكـريم وعبرت عنها حياة الرسول قـد طمسـت تحت طبقـات كثيفـة ومتواليـة من الغشـاوات حتى حجبتها تمامًا. بل إن فهم الفقهاء الأوائل لهـا نالـه على يـد الفقهـاء الـذين جـاءوا بعدهم من الطمس والمسخ والتشويه ما أثر عليه. وكانت النتيجة سـيادة فهم تقليـدي لما توارثه الأبناء عن الآباء والآباء عن الأجداد بحيث فقـدت القيم كـل أضـافتها، وبـدلا من أن تحكم الأوضاع سخرتها الأوضاع عن طريق فقهاء السلطة. بحيث إنهـا أصـبحت سـلاحًا في أيـديهم بعـد أن كـانت سـلاحًا مشـرعًا عليهم، وأصـبح كـل آمـال علمـاء

المسلمين وفخرهم أن يكونوا "سلفيين" دون أن يخطر في بالهم أن يكونوا قرآنيين أو محمديين.

وليس هناك أي مبالغة عندما نقول إننا لا نؤمن بالقرآن الذي أنزل على محمد، ولا بما قرره محمد، ولكن بفهم الفقهاء لما جاء في القرآن ولما قاله الرسول. وفهم الفقهاء شيء وحقيقة الأمر شيء آخر. لأن فهم الفقهاء محكوم بمدى ذكائهم وثقافتهم وتأثرهم بأوضاعهم وسياسة الملك العضوض التي بدأت مع معاوية بن أبي سفيان وظلت حتى الآن باستثناء فترات قصيرة. ومع ذلك فإن هؤلاء الفقهاء يدعون أنهم المختصون، وأنهم "أهل الذكر"، وأنهم المأهلون للفصل في كل ما يتعلق بالدين؛ لأنهم تلقوا دراساتهم الفقهية. وما علموا أن دراساتهم الفقهية هذه هي بيت الداء وأصل المشكلة وأن المطلوب الذي لا مفر منه صرف النظر تمامًا عنها والعودة إلى القرآن، لقد تكررت في الإسلام مأساة الإيمان التي حدثت في اليهودية والمسيحية، ووقع ما حذرنا منه الرسول "**لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**"، فاليهود لا يتبعون شريعة موسى وإنما "**الهالاكا**" التي وضعها الأحبار والربانيون في القرن التاسع، والمسيحيون لا يتبعون شريعة المسيح بن مريم وإنما القواعد الإيمانية التي وضعتها الكنائس المختلفة منذ أن بدأت المؤتمرات الكونية في القرن الثالث المسيحي، ونحن الآن نتبع المذهبيات التي جاء بها الأئمة، ولكل مذهب إمام يعد هو المرجع الأعلى.

وأنْسِي في هذا الغمار الكثيف القرآن والرسول.

وكانت نتيجة ذلك أن فقدت القيم الإسلامية صفاءها ونقاءها وخلوصها وموضوعيتها. وبالتالي لم تعد قوة تحرر وانتهاض وحياة وسلوك، ولكن شعائر وطقوس وعادات وتقاليد.

وما لم تتم ثورة فقهية يعود بها فهم الإسلام إلى القرآن مباشرة وقيَمه دون تأويل فإن الفهم التقليدي والاتجاه السلفي الذي تمثله "المؤسسة الدينية" سيقف عقبة أمام العودة إلى القرآن واستخلاص القيم التي جاء بها والتي يمكن أن يتمحور حولها المشروع الحضاري.

فإذا قالوا: إن القرآن مجمل. قلنا: إنه يفسر بعضه بعضًا فما جاء مجملاً في آية جاء مفصلاً في آية أخرى، فضلاً عن أن هذا الإجمال قد يراد منه إعطاء الفرصة للاجتهاد. وإذا قالوا: إن في القرآن ناسخًا ومنسوخًا، قلنا: إننا نرفض أن توجد آية بين دفتي المصحف تقرأ وتتلى كجزء لا يتجزأ منه ثم يقال إنها منسوخة، وإذا قالوا: إن السنة تفسر القرآن قلنا: إنها تفسره في حدوده وبما لا يتجاوز هذه الحدود؛ لأن الرسول "مُبَلِّغ" كما قال القرآن وكرره تكريرًا. وإذا قالوا: السنة قاضية على الكتاب، قلنا: لا بل الأمر كله إلى الكتاب. فضلاً عن أن السنة ظنية الثبوت والقرآن مؤكد الثبوت ولا يمكن الحكم بالظن على اليقين.

وأخيرًا فلنحذر أن ينطبق علينا قول الله تعالى: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ** ﴾ (17 البقرة).

الفصل الثالث
التطورات التاريخية وأثرها على المشروع الحضاري

إن وجود الأزمة الحضارية في المجتمع المصري لا يعود فحسب إلى ما أشرنا إليه من تأثر القيم الحضارية الموضوعية التي جاء بها القرآن، والتي تمثل لب الحضارة بالفهم التقليدي الذي شوهها تمامًا وأفقدها موضوعيتها. وإنما هناك أيضًا عامل آخر أسهم في تعقد الأزمة الحضارية ومضاعفة مشكلاتها. ذلك هو التطور التاريخي لمصر منذ أن بدأت حياتها الحديثة.

لقد بدأت مصر الحديثة تاريخها بواقعة كان يمكن أن تكون بداية النهضة والمشروع الحضاري الحقيقي عندما ألبس السيد عمر مكرم وشيوخ الأزهر "البكباشي" محمد علي قائد الفرقة الألبانية خلعة الولاية وأعلنوه حاكمًا على مصر ليحكم طبقًا للشريعة والشورى. أو كما قال الجبرتي: "تم الأمر بعد المعاهدة والمعاقدة على سيرة العدل وإقامة الأحكام والشرائع والإقلاع عن المظالم وألا يفعل أمرًا إلا بمشورته ومشورة العلماء وأنه متى خالف الشروط عزلوه".

وقد حدث هذا في مواجهة الوالي الشرعي خورشيد باشا وضد إرادة الخليفة العثماني في الآستانة، ومارس الشعب بالفعل الحرب ضد خورشيد وحاصره حتى سَلَّم، وقال الجبرتي: "انتصر محمد علي بالسيد عمر مكرم النقيب والمشايخ والقاضي وأهل البلد والرعايا".

تلك كانت لحظة الشعب العظمى التي وضع فيها "**المجانا كارتا**"، ولكن للأسف فإن البكباشي محمد علي ما أن تقلد الحكم حتى انقلب على حلفائه السيد: عمر مكرم والشيوخ، واستطاع بالدس والتآمر والإفساد.. الخ أن يفرق بينهم، وأن يحدد إقامة السيد: عمر مكرم بعيدًا في دمياط وأن يستأثر بالحكم.

أراد محمد علي بعد هذا أن يبني دولة وأن يقيم مشروعًا حضاريًا، ولكن أنَّى لبكباشي أن يكون داعية حضاريًا أو قائدًا جماهيريًا أو مبدعًا لعقيدة أو نظرية؟ لقد استقدم محمد علي الأجانب من كل جنسية، واستبعد المصريين حتى اضطر اضطرارًا إلى الاستعانة بهم وأقام قلعة صناعية وأسس جيشًا منتصرًا، ولكن كل هذا دون عقيدة أو نظرية، ودون مشاركة حقيقية وفعالة من الشعب؛ وبهذا فعندما تآمرت عليه الدول انهار مشروع محمد علي، وإن استطاع أن يخلص لمصر بحدود تمتد إلى منابع النيل.

في تجربة محمد علي لا بد أن نلمس أن الإجهاض الحقيقي لها لم يأت في "نافرين" عندما دمرت بريطانيا الأسطول المصري، ولكن عندما أوقع محمد علي بحلفائه وقادة الشعب، وفرّق بين علماء الأزهر، ونفى عمر مكرم؛ فقطع نفسه من القيادة الشعبية الحقيقية لمصر؛ ولهذا فإن من الخطأ الحديث عن مشروع محمد علي كمشروع حضاري نهضوي؛ لأنه تآمر على الشعب الذي قدم هذا المشروع.

* * *

وبعد مائة وخمسين عامًا وجدت البلاد نفسها أمام بكباشي آخر قام بالثورة ضد الفساد الذي تفشى في العهد الملكي ورزق مساعدة ومحالفة الإخوان المسلمين.

وأوقع البكباشي جمال عبد الناصر بحلفائه الإخوان كما أوقع البكباشي محمد علي بحلفائه شيوخ الأزهر، وإن كان محمد علي كان أكرم؛ لأنه نفى النقيب عمر مكرم إلى دمياط بينما زج البكباشي عبد الناصر بالمستشار الهضيبي إلى السجن الحربي وزبانية التعذيب.

وتكررت مأساة مشروع محمد علي مع "تنويعات" متفاوتة فقد حكم جمال عبد الناصر وفي ذهنه ما عبر عن الصحفي الإنجليزي بريان روبرتسون "إن برلماني هو جيشي"؛ ولذلك إن أول ما حرص عليه وقام به هو أن يضع على رأس الجيش صديقه الحميم: عبد الحكيم عامر.

وبدأ عبد الناصر حكم الفرد المقنع بالدعايات السياسية وحذا حذو النظم الشمولية سواء أكانت فاشية أو اشتراكية، وحقق له ذلك زعامة زائفة أو مُدَّعاة حتى وقفعت هزيمة 67 المخزية التي أودت بالنظام، وكشفت عاره قدر ما ألحقت العار بمصر وجيشها.

ودون الإفاضة التي لا يتسع لها المجال، ولأننا عالجنا هذه النقطة بتوسع في كتابيْنا: "الإسلام هو الحل" و "كلا ثم كلا" وغيرهما، فإننا نقول بكل اختصار وتركيز: إننا إذا وضعنا إنجازات الناصرية في كفة وسوءاتها في كفة فإن كفة السوءات تعدل أضعافًا مضاعفة الإنجازات. وحسبنا هزيمة 67 التي أخرت المنطقة مائة سنة إلى الوراء وحاق شؤمها وعارها بالمنطقة العربية كلها، وسلمت لإسرائيل أكثر مما كانت تحلم به، وحسبنا غرس بذرة الحكم الفردي والاستئثار بالسلطة وتزوير الانتخابات بحيث ظهرت نسبة 99.9 % المزعومة، وحل النقابات، وتقييد الصحافة، واستتباعهما للتنظيم السياسي، وحل الأحزاب، والهيمنة على الجمعيات، وأخيرًا إشاعة الإرهاب والتعذيب الوحشي الخسيس في المعتقلات وبدون محاكمات أو بمحاكمات هزلية يرأس محاكمها الدجوي وجمال سالم و "ما" أشبه"!

لا جدال في أن هذا يزيد أضعافًا مضاعفة عن الإنجازات المزعومة فضلا عن إساءة تطبيق هذه الإنجازات عندما عهد بإدارتها إلى أهل الثقة والضباط الذين طردتهم محاكم التطهير. وجاء وقت كانت حاشية عبد الحكيم عامر الفاسدة والمشبوهة - والتي جاوزت حاشية فاروق من قبل - توزع على المحاسيب مناصب الإدارة في الشركات الصناعية التي بناها رجال الصناعة، ورواها العمال بعرقهم، وكانت آخر هدية أراد المشير الفاشل العقيم أن يهديها لمصر هي أن يكون شمس بدران - بطل التعذيب الخسيس - هو رئيس الوزراء بعد هزيمة 67.

هذه الصفحات المروعة من السوآت كانت توجب أن تحاكم الناصرية أمام محكمة التاريخ لتصدر عليها حكم الإعدام.

ولكن حال دون ذلك أمران:

الأول: أن هناك بقية من المتورطين في لوثات الناصرية استطاعوا أن يجاوزوا ظلماتها حتى التسعينيات. وقد نصب هؤلاء أنفسهم مدافعين عن الناصرية مواصلين زيوفها تسترًا على مشاركاتهم في جرائمها وحماية لأنفسهم ووجدوا العون في كثير من المغفلين أو السذج أو الحكام اللذين شاركوا في الناصرية أو يحكون على طريقتها، ومن مصلحتهم بالطبع عدم هتك أستارها وكشف عوراتها وهم ينفقون بسخاء ويمكنون لهذا الباطل من أن يصدر الصحف ويكون حزبًا يحمل اسم الناصرية.

الثاني: إن التطور التاريخي كان يحول دون ذلك. فقد تسلم السادات السلطة كتائب لعبد الناصر وكان قد شارك في كل سوآتها. وما كان يمكن أن يتنكر لها رغم علمه بكل زيوفها.

ومع أنه قضى على تلك العصابة القميئة التي كانت تحكم مصر وراء ظهر عبد الناصر (علي صبري وشعراوي جمعة وسامي شرف... الخ). إلا أنه لم يقض عليها لحساب الشعب قدر ما قضى عليها لحساب السلطة!. فقد سمح بفرار أسوأ رموز السجن الحربي والتعذيب شمس بدران، بل أعطاه جوازًا دبلوماسيًا. وتكتم على تفاصيل قضية صلاح نصر لأنها تفضح العهد. ولم يكن لديه شجاعة خروشوف ليعترف بجرائم الطاغية ويبدأ ثورة التصحيح. على العكس إنه دافع عنه كما لو كان ذلك من أخلاق القرية!. ومع أنه سمح بشيء من الحريات وأوجد التعددية السياسية. وأغلق المعتقلات الكريهة ـ وصمة الناصرية ـ وحقق نصر رمضان الذي غسل به عار 1967 فإن تردده وضعفه أما الثناء والملق وحاشية السوء والمنتفعين أفسدت عليه أمره وحكمه حتى قضى حياته في مشهد مأساوي يعجز عن تصوره أبرع المخرجين السينمائيين.

وتكررت المأساة مرة أخرى، فقد كان محمد حسني مبارك نائبًا للسادات وتسلم السلطة بهذه الصفة وبدأ حياته بداية باهرة عندما أفرج عمن اعتقلهم السادات وقال: "إن اسمي مبارك" تميزًا عن العهدين السابقين، ولكن لا فائدة! فالحاشية هي الحاشية هي بقية المنتفعين بالحكم والمحترفين للسياسة والذين كانوا في الاتحاد الاشتراكي أيام عبد الناصر، ثم حزب مصر، ثم الحزب الوطني الديمقراطي أيام السادات وواصلوا الحكم أيام مبارك، ولعل رفعت المحجوب هو رمزهم الذي واصل عملية تحطيم القانون التي بدأت من أيام الناصرية حتى رئاسته لمجلس الشعب بحجة ابتدعها أن المجلس سيد قراره. وفي هذا المجلس سيد قراره دخل "نواب الكيف" والمرتشون والذين جاءت بهم انتخابات حكمت المحاكم ببطلانها. وشيئًا فشيئًا ومع ممارسة السلطة واستمرارها في يد واحدة، ومع بقاء أحكام الطوارئ أخذ القصور الذاتي يعمل عمله، فعادت الأمور كما كانت وشنت الهجمات على النقابات ووضع قانون يعاقب بالسجن عشرين عامًا كل صحفي ينشر أخبارًا غير حقيقية أو يزدري الدولة.

وأدى سوء المعالجة وسوء الإدارة لتضخم الفساد والرشوة والمحسوبية من ناحية، والتهور و العنف من جماعات طائشة من ناحية أخرى، وقيل: إن الحكومة قد قضت على الإرهاب بعد أن شنت عليه حملات مكثفة. فهل تقضي على الفساد وهي تشن عليه مثل هذه الحملات. إن نشر المخدرات ونهب الملايين وإطعام الشعب لحوم الكلاب والأطعمة الفاسدة لا تستحق مثل هذه الحملات.

ومع كبت الحريات وعجز الحكومة عن معالجة المشاكل اشتدت قبضة السلطة. وحل الأمن المركزي وضباطه وسجون الأقسام محل ضباط المخابرات والسجن الحربي.

إن أربعين عامًا من تحطيم مقومات الشعب وحل تكتلاته والسيطرة على المنظمات وإشاعة الحكم الفردي والاستئثار بالسلطة وتحطيم القانون وقهر الشعب وتزييف الانتخابات وتعهير الشعارات، كان ولا بد أن تؤدي إلى النتيجة المؤسفة التي نراها في الإنسان المصري الآن وفقده للعزة والكرامة والغيرة والشجاعة بعد أن حوصر من كل جهة وطوال أربعين عامًا، وبعد أن تعرض زهرة شبابه للتعذيب الشنيع وفقدوا وظائفهم وضاع عمرهم.. نجح الإرهاب المحكم المستمر في أن يؤتي ثمرته المُرة: ألا وهي قهر الشعب وإشاعة الخوف بين الناس وما يعنيه هذا من سلبية وعدم اكتراث وعدم ثقة.

وعندما هان المـواطن المصـري في بلـده هـان خارجهـا وأصـبح أرخص سـلعة في سوق النخاسة، وأصبح في السـعودية والخليج أسـيرًا للكفيل، وجـاءت بجثتـه النعـوش الطائرة من العراق وغيره، وأصبح "ملطشة" لكل الدويلات العربية.

الفصل الرابع
المشروع الحضاري بين السلطة والفقهاء والمفكرين

إذا أريد وضع مشروع حضـاري حقًـا فلا بـد من تكتـل ثلاث جبهـات وعملهـا سـويًا، وطِبْق خطوط عريضة متفق عليها، تلحظ فيها الأصول الموضوعية الدائمة الـتي أثبتت على مر القرون عراقتها وأصالتها، وتستبعد منها كل العوامل الطارئـة والآنيـة والذاتيـة والتي ارتبطت بأشخاص أو بحقبة من حقب الحكم.

وهـذه الجبهـات هي السـلطة والفقهـاء والمفكـرين. فلا يمكن بداهـة البـدء في مشروع حضاري تحاربه السلطة وتصلت عليه سيوفها، وتزج دعاته في سجونها، وتـذيع وتنشر بما تملكه من أجهزة الإعلام زيوفًا تطمس الحقيقة.

ولا يمكن وضــع مشــروع حضــاري في غيبــة "الفقهــاء" بــالمعنى العــام وليس الاصطلاحي أو الشائع. أي الذين يعرضون وجهة نظر الإسلام، لأن أي مشروع حضـاري يتجاهل الإسلام لا يلمس نبض الجماهير ولن يجد تجاوبًا منها وسيولد ميتًا.

وفي الوقت نفسه فلا بد من المفكرين الذين يعرضون لنا وجهة النظر الحديثة وما يموج به العصر من تيارات وقوى لا بد وأن تلحظ عند وضـع مشـروع حضـاري ينتسـب إلى العصر ويحيا حياته.

وفيما يلي كلمة عن كل جبهة من هذه الجبهات.

1- السُلطة:

ليس من الضروري أن نذهب إلى العصر الفرعوني أو المملوكي أو حتى نشير إلى طبيعة مصر و "اقتصاد النهر" الذي جعل للسلطة يدًا عليا وقـوة مركزيـة لا نجـدها في غير هذه البلاد. بحيث لا يستطيع الفلاح أن يروي أرضه إلا برضا السلطة.. الخ.

نقول: ليس من الضروري أن نعود إلى هـذه الآبـاد التاريخيـة السـحيقة، ويكفي أن نبدأ مع بداية مصر في عهد محمـد علي لنجـد أن السـلطة من محمـد علي حـتى عبـد الناصر قد استهدفت السيطرة الكاملـة وسـحق شخصـية الفـرد وجعلـه تابعًـا للنظـام، باستثناء تلك الفترة من سنة 1923 إلى سنة 1952، وهي المرحلة الليبرالية التي وإن وجد فيها السراي من ناحية والإنجلـيز من ناحيـة فـإن الحكم بـالحراب والعسـكر كـان الاستثناء وليس القاعدة. أما فيما عداها فقد خضع الشـعب لحـراب حكامه، وليس أدل على ذلك من الفترة المعاصرة (1995) الـتي لا تتطلب على الإطلاق حكمًـا عسـكريًا. ومع هذا فإن البلاد تحكم حكمًـا عسـكريًا لا نـرى أنفسـنا في حاجـة للتـدليل عليه؛ لأن الحكومة نفسها بما تقـوم بـه بين يـوم وآخـر تعفينـا من ذلـك. وآخـر إجراءاتهـا قـانون الصحافة وتحويل مجموعة من أكرم رجالات المجتمع المصري إلى المحاكم العسكرية بتهمة انتمائهم للإخوان المسلمين!

إن نــواة أي مشــروع حضــاري لا بــد وأن تكــون الفــرد الحــر الــذي يحس العــزة والكرامة ويعيش في مناخ من الحرية بحيث يسـتطيع أن يحقـق مشـروعه الحضـاري. وقيام الحكم على أسـاس ديكتـاتوري يضـع أمـام هـذا المشـروع سـدًا منيعًـا يمكن أن يمتص كل طاقة بناء المشروع في هدم السد هـذا إن اسـتطاع، ويحـول معركـة البنـاء إلى حرب أهلية.. بين الشعب وحكامه.

لا بـد أن نقـول للـذين يجتمعـون حـول الموائـد ويضـعون مسـودات المشـروع الحضاري. انتبهوا أيها السادة! فلا أمل في كل جهودكم مـا ظلت النظم الحاكمـة على ما هي عليه. وعليكم أن تتجهوا إلى الحكومات والرأي العام وأن تكثفوا عملكم وسـط الجماهير والجماعـات للقضـاء على تلـك الأغلال وإعـادة الحريـات: حريـات الصـحافة، حريات النقابة، حريات الأحزاب، حريات الفكر والاعتقاد. لا بد من إسقاط كل القوانين سيئة السمعة وكل قوانين الطوارئ.. الخ.

وهذا هـو شـرط أساسـي لظهـور المشـروع الحضـاري، لأنـه المنـاخ الـذي يسـمح بظهـوره به، بـل يمكن القـول إنـه أقـل الإيمـان. لأن المفـروض أن لا تقـف السـلطة الرشـيدة الـتي تـؤمن بشـعبها عنـد الموقـف الحيـادي أي الـذي يقنـع برفـع الحـواجز والأغلال، ولكن أن يكون لها دور إيجابي. وأي سلطة تنبثق من الشـعب أو ترتكـز على الشـعب لا تكـون في حاجـة لتفهم هـذا. إنهـا من الشـعب وإلى الشـعب وإنمـا ينشـأ التقطب عنـدما تريـد السـلطة أن تسـتخدم الشـعب في بقائهـا وتـدعيمها، وتظن أن الشعوب قد خلقت لخدمة حكامها. وتجهل ما عرفه العالم من أيـام الثـورة الفرنسـية، وما وضعه الإسلام قبلها عندما كان الفقهاء يطلقون على الخليفة لقب "الأجـير" الـذي استأجره الشعب ليقوم بحاجته.

في نظرنا إن الدور المفروض للدولة في بناء المشروع الحضاري يتضمن:

1- تحقيق الحريات السياسية والفكريـة بكاملها، وعلى مـا أشـرنا إليـه آنفًا، سـواء أكـانت في مجـال الفكـر والاعتقـاد، أو كـانت في مجـال المعارضـة والتعدديـة السياسية، أو في مجال الصحافة والنشر، وأن تضع أجهزة الإذاعـة والتليفزيـون تحت إدارة قومية مستقلة واحترام أحكام المحاكم.

2- رعاية الشعب الفقير والمحتاج وتقـديم العلاج والإسـكان والتعليم؛ لأن هـذا هـو مبرر قيام الدول في العصر الحديث.

وبأي منطق تبرر الدولة فرض الضرائب الباهظة على النـاس إذا لم تكن لتصـرفها في هذه الخدمات! إن نسـب مـا تنفقـه الحكومـة على خـدمات التعليم والعلاج نسـب مخجلة.

3- لا يتطلب هذا ـ كمـا يظن البعض ـ ان تـؤمم الدولـة وسـائل الإنتـاج وأن تهيمن على الاقتصاد. فإن هذا خطأ أصولي؛ لأنه إذا كان يستبعد الاستغلال الرأسـمالي ويمكن الدولة من الموارد المطلوبة. فإنه يعرض الدولة نفسـها للفسـاد. كمـا لا بد وأن يخضع التخطيط للبيروقراطية. ويخضع الأداء للتسيب والإفلاس وبهـذا لا يتحقق المطلوب.

وإنما يتحقق هذا بصورة سليمة عنـدما تأخـذ الدولـة من الأغنيـاء لتعطي الفقـراء.. وعنـدما تتـولى توجيـه الاقتصـاد لا إدارتـه ولا الإشـراف عليـه، وهي تسـتطيع النجـاح في ذلـك إذا كـان مؤيـدة بنظريـة اقتصادية إسلامية تحقق هذا، وتجعله جزءًا من الإيمان الشعبي.

وأخيرًا فلا بد أن تعلم السلطة ـ أي سلطة ـ أنها ما لم تعمل لخدمـة الشـعب فـإن عدمها خير منها. وكل ما يوجه إليها من نقد يكون مبررًا ومشروعًا. وإن فخرها وعزهـا لا يكون بأن تصبح قوية، مهيمنـة، مسـيطرة ولكن أن تكـون في خدمـة شـعبها. تعمـل بإخلاص لتحقيق إرادة الشعب، وبقـدر مـا تفعـل، بقـدر مـا تكـون قائمـة بواجبهـا.. فلا ينتخب الشعب حكامًا، ولا يدفع ضرائب لكي يستبد به هؤلاء الحكـام وتسـتخدم أموالـه في تعزيز الأمن، وتقييد الحرية، وإهـدار كرامـات المواطـنين. والسـلطة الرشـيدة هي التي لا تـرى لنفسـها إرادة سـوى إرادة الشـعب، ولا تستشـعر حرجًـا أو حساسـية في النزول على إرادة الشعب، بل إنها تسعد بذلك وتفخر به وترى فيه واجبها الذي قـامت من أجله.

لقد آن للمصري المقهور من أيـام الفراعنـة أن يتحـرر وأن يكـون سـيدًا في بلـده وعلى أرضه.

2 - الفقهاء:

أشرنا إشارة موجزة إلى مصر الإيمانية، ولا يتسع مجال هذا المـوجز للحـديث عن هذه النقطة الهامة بقدر ما تستحقه من اهتمام. وحسبنا القول: إن الدين هو الذي بنى مصر، وأنه كان وراء الأهرام والكرنك.. وراء موقعة عين جالوت وحطين.. والمنصورة، حـتى حـرب رمضـان الـتي حـوربت تحت شـعار "اللـه أكـبر". وقـد تكـونت الشخصـية المصرية تكوينًا إيمانيًا؛ بفضل الظـروف الجغرافيـة والمناخيـة منـذ قرابـة ثمانيـة آلاف عام، وقبل أن تبدأ أولى الغزوات الأجنبيـة بثلاثـة آلاف عـام تقريبًـا. ولهـذا فعنـدما بـدأ الهجوم على مصر لم يقض الغـزاة على شـعب مصر، فهـو إمـا منتصـر بحكم العقيـدة على الغزاة يؤثر فيهم ويستقطبهم، وإما متقوقع داخل صَدَفَةِ الدين حتى تمر الغاشية، أو يستعيد قواه خلال عقـود أو قـرون تنتهي بـأن يـذوب المنتصـر فيـه ويصـبح بصـورة بطيئة وغير محسوسة جزءًا منه.

وبقوة الدين وحدها اسـتطاع المصـريون في فجـر التـاريخ أن يقيمـوا هـذا الوجـود القوي الصـامد للـدين: أن يصـعدوا بأحجـار الأهـرام الثقيلـة إلى قمته، وأن ينحتـوا من الجبال معابد وتماثيل، وأن يغوصوا بالمقابر في أعماق الأرض، وأن يزينوها ويرسـموها حيث لا ضوء ولا شمس، وأن ينقشوا بالإزميل على الصخور الصـلدة ليخلـدوا تـاريخهم وليبلغوا رسالتهم للأجيال.

وكان إيمان مصر بالإسلام أمرًا مقضيًا، لم يكن صدفة أو ملابسة، فقد كـان حظهـا من الأديان كمـا كـانت مصـر حـظ الإسـلام من الأمم. وقـد وجـدت مصـر فيـه النهايـة الطبيعية لمسيرة الإنسان المصري نحو الـدين، ووجـدت التصـورات السـاذجة البدائيـة للإنسان المصري عن الله واليوم الآخر صورتها النقيـة المجـردة في الإسـلام.. وهنـاك تشابه عجيب بين فكرة الدين المصري القديم عن اليـوم الآخـر، وهـو أبـرز مقـوم في الأديان، وبين فكرة الإسلام. ففي الديانة المصرية نجد الميزان ونجـد "ريشـة الطـائر" الـتي ترمـز للعدالـة.. وهـو ما يمثل "الميزان" في الإسلام وتعبير "مثقال ذرة" أو "حبة من خـردل"، كمـا أن ثمـة تشابه بين بعض تصورات الجحيم في الديانة المصرية القديمة والإسلام.

وتتكرر الأحاديث في الديانة المصرية القديمـة عن الشـمس كرمـز للألوهيـة، كمـا تتكرر الإشارات في القرآن عن الشمس كآية من آيات الله.

وهناك دعاة يدعون إلى دسـتور مـدني وحكم مـدني، وهـؤلاء علمـوا شـيئًا وغـابت عنهم أشياء. فعندما تحكم أوربا حكمًا مدنيًا؛ فـذلك لأنهـا "طـول عمرهـا" كـانت وثنية، إنهـا لم تكن أبـدًا أرض أنبيـاء ورسـالات سـماوية.. كـانت أرض الفنـانين والشـعراء والفلاسفة الذين صاغوا لها ضميرها ووجـدانها، وإلى هـذه الحقيقـة تعـود كـل حسـنات وسوآت الحضارة الأوربية.

أما مصر فإنها أم الديانات ولا يمكن أن تعيش بـدونها وليس معـنى هـذا أننـا نـدعو إلى حكم ثيوقراطي أو كهنوتي. فنحن بالطبع ضد هذا تمامًا وإنما نحن نــدعو إلى حكم يعمل جاهدًا على استلهام القيم الإسلامية بحيث يكون له طبيعـة معنويـة وقيم أدبيـة.. وهذا يختلف عن الحكم المدني الذي شعاره الحقيقي "دعـه يعمـل" دون أي ضـابط أو استلهام لأي قيمة.

الإسـلام بعـد، في معظم مـا يضـعه من نظم يكـاد يكـون مـدنيًا، فهـو لا يعـرف المؤسسـة الدينيـة الـتي تملـك التحـريم والتحليـل. والـزواج يكـاد يكـون عقـدًا مـدنيًا، والمسجد كذلك لا يخضع لكنيسة أو كهنوت.

* * *

إن مأساة فقهائنا هي أنهم قبلوا أن يكونوا رهن محبسين هما: الزمان والمكان. فكل ثقافتهم هي ثقافة الأسلاف، وكل مراجعهم التي يعتد بها هي المجلدات التي كتبت من مئات السنين، وهذه الثقافة هي التي تعرف عادة "بالمدرساتية" التي تعتمد على ملازمة الشيخ، وتتوقف على مدى إحكام الشيخ لمادته، ومدى صحبة مريده له. وكانت هذه الطريقة هي الشائعة في أوربا حتى ظهرت المطبعة فحررت الدارسين وجعلت المعرفة شائعة وفي متناول اليدين. أما فقهاؤنا فلا زالوا يعتمدون على المراجع التي كتبت من ألف عام، خاصة وقد انغلق باب الاجتهاد منذ مئات السنين فحرموا على أنفسهم للتفكير، أو أن التفكير الذي هو فريضة إسلامية أصبح ممنوعًا عندهم.

ومن ناحية أخرى فإنهم لزموا أماكنهم وبلادهم ولم يحاولوا أن "يسيروا في الأرض" رغم أن هذا أمر متكرر في القرآن لغرض العظة والتعليم، وبتعبيرنا الاستفادة من كل الثقافات العالمية، وما مثلهم بالنسبة "للعالمية" إلا مثل الفلاح الذي لم يخرج من قريته، ويا ليتهم عوضوا هذا النقص بالاطلاع على ثقافات الدول الأخرى فإن هذا مما لا يخطر ببالهم. وماذا عسى أن يقدم الآخرون لهم وهم فرسان الكلام والمنطق والتوحيد والتفسير.. الخ.

وهكذا حبسوا أنفسهم مختارين طائعين في هذين المحبسين الزمان.. والمكان.

ولكنهم لما كانوا عمليًا يعيشون في القرن العشرين، ويستخدمون ما يقدمه لهم العصر من معدات وآلات فيركبون العربات لا الخيل أو النياق، ويتحدثون في التليفونات ويقرأون الصحف ويسمعون الإذاعات ويشاهدون التليفزيون، فقد تكونت في نفوسهم "ازدواجية" بين ما يمارسونه بالفعل من ناحية، وما تقوم عليه ثقافتهم التقليدية من فكر من ناحية أخرى، فيتحدثون عن الحريات كما تأتي في الصحف وفي الوقت نفسه يضيقون بأي فكر مخالف، ويدَّعون تحرير المرأة ثم يطالبونها بالنقاب الذي يجعلها شبحًا أسود وليست نفسًا حرة أبية، أو يعزلونها في أماكن قصية، ويشيدون بالعدالة وفي الوقت نفسه يراكمون الأموال، وعندما يُخرج بعضهم الزكاة فإنه يظن أنه قد أدى ما عليه. مع أنه يخرج ربع ما تقدمه البنوك من "عائد" على أمواله (بمتوسط 10 % يخصم منها الزكاة بواقع 2.5 %) ويظن أنه قد أدى ما عليه، ويناصرون بنوكًا إسلامية ليس فيها نبض إسلامي، والفرق بينها وبين البنك "الربوي" خلاف في الاسم، فالبنك الإسلامي يقدم "عائدًا" لا يحدده ولكنه طبقًا للأصول الحسابية لا بد وأن يتفق مع مستوى "الفائدة" التي يقدمه البنك الربوي. أما أن يكون للبنك الإسلامي نبض إسلامي فيعني بالخدمات أو يقيم عمارات سكنية للشباب الذي يريد أن يتزوج ويعصم نفسه من أن يبيعها في أسواق النخاسة العربية والأوربية فهذا ما لا يفكر فيه البنك الإسلامي. والمفروض أن يكون في البنك الإسلامي "نبض" وروح إسلامي يحركه ويجعله في خدمة عباد الله.

وقد تحدثنا في الفصل الثاني عن القيم الإسلامية التي يفترض بأن تكون محاور المشروع الحضاري، وكيف أنها تجمدت بتأثير الجهالة والتقليد بل سخرت لخدمة سياسات الحكام.

ويتواءم هذا مع ما أصاب الفقهاء من عقم وازدواجية حالت دون أن يقوموا بدورهم في استنقاذ القيم الإسلامية ونصبها لتكون محاور النهضة، بل إنهم هم أنفسهم استُخدِموا في أيدي الحكام.

ومن رحمة الله أن الإسلام ليس دينًا مغلقًا وأن أي هيئة أو جماعة لا تستطيع له احتواء أو احتكارًا، ولا تستطيع قصر الحديث باسمه عليها، ولعل هذا هو السبب في أن دعوات التجديد جاءت من غير "الأزهريين" والعلماء التقليديين، ولا يزال السبيل

مفتوحًا أمام المفكرين الإسلاميين لتقديم الفهم الانتهاضي للإسلام كدعوة تحرير وإنقاذ من الظلمات إلى النور، وهناك بوادر عديدة على ظهور مثل هذا الفهم. وسنقدم إضافتنا الخاصة في هذا الصدد في الفصل القادم (الخامس).

3 - المفكرون:

في كتابنا "كلا ثم كلا.. كلا لفقهاء التقليد وكلا لأدعياء التنوير" بيَّنا العوامل التي تنحرف "بدعاة التنوير" ليصبحوا "أدعياء التنوير"، وقلنا: إن ثقافة الاغتراب عن الإسلام والبلاد هي من أبرز هذه العوامل. وضربنا المثل بالدكتور زكي نجيب محمود الذي قال:

"لم تكن قد أتيحت لكاتب هذه الصفحات في معظم أعوامه فرصة طويلة الأمد تمكنه من مطالعة صحائف تراثنا العربي على مهل. فهو واحد من ألوف المثقفين العرب الذين فتحت عيونهم على فكر أوروبي ــ قديم أو جديد ــ حتى سبقت إلى خواطرهم ظنون بأن ذلك هو الفكر الإنساني الذي لا فكر سواه؛ لأن عيونهم لم تفتح على غيره لتراه، ولبثت هذه الحال على كاتب هذه الصفحات أعوامًا بعد أعوام: **الفكر الأوربي دراسته وهو طالب، والفكر الأوربي تدريسه وهو أستاذ، والفكر الأوربي مسلاته كلما أراد التسلية**.

استيقظ صاحبنا كاتب هذه الصفحات ـ بعد أن فات أوانه أو أوشك ـ فإذا هو يحس الحيرة تؤرقه فطفق في بضعة الأعوام الأخيرة التي قد لا تزيد على السبعة أو الثمانية يزدرد فيه تراث آبائه ازدراد العجلان كأنه سائح مر بمدينة باريس وليس في يديه إلا يومان ولا بد له من خلالها أن يريح ضميره بزيارة اللوفر. فراح يعدو من غرفة إلى غرفة يلقي بالنظرات العجلى هنا وهناك ليكتمل له شيء من الزاد قبل الرحيل" [1].

وكذلك كلمة الدكتور لويس عوض عن نفسه أنه: "ظل ما بين العشرين إلى الثانية والثلاثين لا يقرأ حرفًا واحدًا بالعربية إلا عناوين الصحف السيارة وبعض المقالات الشاردة التي ألزمته الضرورة السياسية بقراءتها.." فلا عجب إذا قال: إنه لولا الميلاد "لكان ولدًا شرعيًا لليونان والرومان والقرون الوسطى والحضارة الحديثة" [2].

وصوّر الدكتور محمد حسين هيكل مأساة الاغتراب الفكري عن البلاد، وشعبها، وفكرها كما عاناه:

ولقد خيل إلي زمنًا كما لا يزال يخيل إلى أصحابي أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلنا إلى هذا النهوض، وما أزال أشارك أصحابي في أننا ما نزال في حاجة إلى أن ننقل من حياة الغرب العقلية كل ما نستطيع نقله. لكني أصبحت أخالفهم الرأي في أمر الحياة الروحية وأرى أن ما في الغرب منها غير صالح لأن ننقله، فتاريخنا الروحي غير تاريخ الغرب، وثقافتنا الروحية غير ثقافته.. لا مفر إذن من أن نلتمس في تاريخنا وفي ثقافتنا وفي أعماق قلوبنا وفي أطواء ماضينا هذه الحياة الروحية نحِّي بها ما فتر من أذهاننا وخمد من قرائحنا وجمد من قلوبنا.

وقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتي ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية؛ لنتخذها جميعًا هدى نبراسًا لكنني أدركت بعد لأي أنني أضع البذر في غير منبته فإذا الأرض تهضمه ثم لا تتمخض عنه ولا تبعث الحياة فيه، وانقلبت ألتمس في تاريخنا البعيد في عهد الفراعين موئلا لوحي هذا العصر فإذا الزمن وإذا الركود العقلي قد قطع ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب، يصلح بذرًا لنهضة جديدة، فرأيت أن تاريخنا

---

1 **(?) تجديد الفكر العربي الطبعة الخامسة ص 5.**

2 **(?) استشهدنا بها في كتابنا "كلا ثم كلا" ص 152.**

الإسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويثمـر. ففيـه حيـاة تحـرك النفـوس وتجعلها تهتز وتربو، ولأبناء هذا الجيـل في الشـرق نفـوس قويـة خصـبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتي ثمرها بعد حين" [3].

وقد تحدثت الأنباء أخـيرًا عن ابن لإحـدى الأسـر القبطيـة العريقـة أدين في قضـية مخـدرات. قـالت عنـه الصـحف: إنـه رغم أنـه في الثامنـة عشـرة من عمـره وطـالب بالجامعة الأمريكية فإنه لا يعرف قراءة أو كتابة العربية، وإن كان يتكلمهـا! فـانظر إلى هذا الحفيد لأسرة رأسَ عميدها يومًا ما الوزارة المصرية ثم لا يعرف أن يقـرأ أو يكتب بالعربية. ولماذا يعرف ذلك وقد كان قبلا في أمريكا ثم هو في الجامعة الأمريكية وكان على نية العودة لأمريكا!

ولا يقتصـر الأمـر على هـؤلاء فهنـاك مئـات المـدارس الأجنبيـة في مصر، وهنـاك الألوف من مدارس اللغات التي تدرس اللغات الأجنبية للأطفال من الطفولـة البـاكرة. كما أن معظم المثقفين المصريين من حملة الدرجات العلميـة الرفيعـة والأسـاتذة في الجامعة تثقفوا على أيدي كتابات المستشرقين الذين لا يألوننا خبالاً ولا يؤمنون بمصـر أو الإسلام ويصدرون أحكامهم عن سوء فهم أو ضـحالة علم. ونتيجـة لهـذا تلـوث فكـر المفكرين وفقد انتماءه لبلاده ولجذورها الحضارية.

وقلنا أيضًا: إن الانتماء السياسي أفسد مجموعة كبيرة من الأفـراد الـذين غرسـهم في المناصب القيادية وأسـلمتهم أجهـزة الإعلام والعمـل الحـزبي بحيث لم يسـتطيعوا الاعتراف بلوثاتهـا أو التحـرر منهـا وأصـبح عليهم أن يكـرروا الـدعاوى الزائفـة للحقبـة الناصرية.

وقلنا كذلك: إن الفكر الاشتراكي استعبد مجموعة كبيرة من المثقفين. وضلل فئـة ظنت في الاشـتراكية العـدل والخلاص بحيث اعتقـدوا أن ليـنين وسـتالين وتروتسـكي ومـاوتس تـونج الخ... هم قـادة البشـرية ودعـاة العدالـة والحرية، في حين أنهم كـانوا أطغى الطغاة والسفاحين الذي أقاموا أنظمتهم على تلال الجماجم.. وأشاعوا الإرهاب وغرسوا الحكم الفردي المقيت.

هذه العوامل وغيرها مما لا يتسع له هذا الموجز أبعدت معظم المفكرين عن تفهم الإسلام أو التجاوب مع مصر الإيمانية، ولعل الفهم المتقوقـع لمعظم الفقهـاء شـجعهم على ذلك فحاولوا أن يفرضوا الثقافة الأوربية ـ والانتماء السياسي سواء أكـان ناصـريًا أو اشتراكيًا على البلاد. ولم يتجاوب معهم الشعب بل إنـه رد عليهم بعكس مـا يـدعون إليـه فشـاع لبس المـرأة للإيشـارب والطرحـة وحـتى النقـاب الكـثيف. واشـتد عـود الجماعات الإسلامية وهيمن الإخوان المسلمون ـ رغم كل ما وجـه إليهم من ضـربات ـ على اتحادات الطلبة في الجامعة ونوادي وهيئات التدريس بها والنقابـات المهنية، ممـا يوضح أن المفكرين في واد والشعب بأسره في واد آخر.

---

3 **(?) محمد حسين هيكل "في منزل الوحي، ط 2، ص 22 ـ 26.**

الفصل الخامس
الخطوط العريضة للمشروع الحضاري

قلنا في مستهل الفصل السابق: إن أي مشروع حضاري لا بد أن يتعاون على وضعه السلطة والفقهاء والمفكرون. وتحدثنا عن العوامل التي جعلت كل فريق من هؤلاء الثلاثة عاجزًا عن المساهمة الفعالة في المشروع الحضاري لتأثره بالعوامل الذاتية الخاصة به التي تتنافى مع ما يفترض أن يتوفر للمشروع من سلامة وأحكام.

ومن هنا تكون الخطوة الحاسمة في وضع المشروع الحضاري هي التوصل إلى الخطوط العريضة بالنسبة لكل جهة من الجهات الثلاث، والتي تبرأ من ضراوة السلطة وتقوقع الفقهاء وانحراف المثقفين، وهو ما حاولناه في الخطوط التي وضعناها لكل جبهة من الجبهات الثلاث في السطور التالية:

أ - بالنسبة للسلطة:

1- لابد أن تقلع السلطة عن فكرة الحكومة التي تهيمن وتسيطر وتستبد وترى أن من حقها أن تقود وتأمر، ومن واجب الشعب أن ينقاد ويطيع وتحس أن أي نقد لها "خيانة عظمى"، وهي الفكرة التي قامت من أيام الفراعنة ثم بعثت مع الشيعية والفاشية.

2- لا بد أن تعرف الحكومة أنها في حقيقتها الأداة التي انتدبها الشعب للقيام بمسئولية خدمة الشعب وتطبيق إرادته.

3- أي حديث عن مشروع للنهضة في غيبة الحرية لا قيمة له، فلا بد من تحقيق الحريات بالمعنى الديمقراطي الحقيقي، أي تحقيق حرية إصدار الصحف وحرية النشر والفكر والاعتقاد وحرية تكوين الأحزاب والنقابات، واستبعاد كل القوانين التي تعطي السلطات حق الاعتقال أو السجن وتحويل السجون إلى وزارة العدل.

4- لا بد من إعلاء حكم القانون والضرب بقوة على كل من يحطمه، كائنًا من كان، وإصلاح النظام القضائي بما يحقق العدالة الناجزة.

5- لا بد من القضاء على الفساد والرشوة والمحسوبية والغش، وسن أشد العقوبات على من يثبت عليه ممارستها؛ حتى تبرأ المعاملات من لوثات الفساد ويعود مناخ الاستقامة والأمانة والطهارة.

6- لا بد من القضاء على الأمية. إن وجود 60 أو 70 في المائة إن لم يكن أكثر من مجموع الشعب أميًا في عصر التكنولوجيا والكومبيوتر قضية لا يمكن السكوت عليها.

7- لا بد من إصلاح نظم التعليم باستبعاد الحشو وبالاهتمام بالمهارات وتحقيق التطابق ما بين التعليم والاحتياجات، مع العناية باللغات وفنون التقدم التكنولوجي.

8- توسيع قاعدة الخدمات من تمريض وتعليم وتأمين ورعاية لخدمة الشعب من ناحية، ولتشغيل العاطلين بعد إعادة تدريبهم فيها. وهذا هو الحل المثمر لأزمة البطالة التي تهدد البلاد بأعظم الأخطار. وهو يحل مشكلة البطالة وفي الوقت نفسه يكثف الخدمات والرعاية.

9- إن الـدور الاقتصـادي للدولـة هـو المشـاركة في وضـع السياسـات الإنتاجيـة والاقتصادية والمالية مع المؤسسات العاملـة في هـذه المجـالات، ووضـع خطـوط للتوجيه تحقق الانتهاض الاقتصادي المتوازن.

10- وضع سياسة ضريبية على الدخول العالية والأربـاح التجاريـة والاقتصـادية لتمويـل خطـة الرعاية، ولا يعـترض على ذلـك بـأن هـذا من شـأنه أن يثبـط "الاسـتثمار"؛ لأنـه لا قيمـة للاسـتثمار من وجهـة الدولـة والمجمـوع إلا في تمويـل الرعاية، وإلا فإن الدولة تصبح مجردة أداة في أيدي المستثمرين لمراكمة الأرباح. وكما قلنا في صفحات سابقة فإن "تأميم الإنتاج" فكـرة فاشـلة ويجب اسـتبعادها، ويكفي أن تشارك الدولة في التوجيه وفي فرض الضرائب.

11- على الدولة أن تستعين بالنقابات لتقوم بـدور في متابعـة الإنتـاج واستكشـاف الأخطاء وتشجيع العمـال النـابهين للنهضـة بوسـائل الأداء وهـذا كلـه من صـميم العمـل النقابي. كما أن له الصفة القومية ويجب إحلال فكرة التعاون محل فكرة التنافر فالحق أن العمال والإدارات شريكان في عملية واحدة وراكبان في قارب واحد.

12- يجب أن تكل الحكومـة أجهـزة الفنـون والتليفزيـون والإذاعـة إلى هيئـات قومية تمثل تيارات الفكر في البلاد حتى لا تتحول هـذه الأجهـزة إلى أجهـزة مـدح وملق للحكومات والمسئولين وحتى تعبر عن فكر البلاد.

13- على الحكومة أن تشـجع الهيئـات والمنظمـات التطوعيـة دون أن تتـدخل في حرية عملها، وعليها أن تتابع ما ينشر في الصحافة أولاً بأول والتحقيق فيه عن طريق جهاز متصل برئيس الوزراء يقوم بالرد على الصحيفة، فإذا كان مـا نشـرته صوابًا شكرها وذكر ما ستقوم بـه الحكومة، وإذا كـان خطـأ صـحح لهـا المعلومـة. ويعد هذا العمل من صميم عمل الحكومة وواجباتها.

14- لا بـد من إيقـاف سياسـة الاقـتراض المشـئومة الـتي أدت بمصـر قـديمًا إلى الاحتلال وحـديثًا إلى التبعيـة، والتخلص من الـديون بطريقـة أو بـأخرى والاعتمـاد على التمويل الذاتي.

15- يجب أن تكون الحكومة القدوة والأسوة، وأن تكون صادقة مع مـا تـدعو إليـه. لأن الشعب ينظر لأفعالها أكثر ممـا يسـتمع لأقوالهـا، ولن يتجـاوب معهـا عنـدما تـدعوه للتقشف وهو يراها تبذر بسفاهة في الإنفـاق على مبانيهـا ومكاتبهـا وعرباتهـا وحفلاتهـا، والتمثيل الخارجي..

ب - بالنسبة للفقهاء [4]:

1- الإسلام هو ختام الأديان السـماوية، وجماعهـا، وهـو يعـترف بهـا وبِرُسُـلِها جميعًا، ويُرجع الاختلاف فيما بينها إلى التحريف والمصالح والأوضاع، وهو يؤمن بالبشـرية كلهـا. وأن اللـه تعـالى أراد التعـدد والاختلاف لإثـراء الحيـاة وليحـدث التعـارف والتبـادل والتلاقح ﴿ **وَجَعَلْنَـاكُمْ شُـعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَـارَفُوا**﴾ وهـو بـريء من الأحاسيس الدونية أو الاستعلاء أو الذاتية التي تثير العداوات وتقيم الحـواجز ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ**﴾.

2- جعل الله تعالى الإنسان خليفة على الأرض، وعلمه الأسماء، وأسجد له الملائكة، وأنـزل الإسـلام لهدايتـه.. **فالغايـة هي الإنسـان والوسـيلة لهدايتـه هي الإسـلام.. فالإسـلام يريـد الإنسـان.. ولكن فقهـاء التقليـد يريـدون**

4 **(?) مقتبس من كتابنا (كلا ثم كلا ...)، من ص 249 إلى ص 253.**

الإسلام، ومعنى هذا أن تصبح الغاية وسيلة، والوسيلة غاية، ومن هنا جاء الاختلاف بين منهج الإسلام الحق، ومنهج فقهاء التقليد.

إن الإنسان المستخلف، المزود بالعقل، والمتحمل لمسئولية إعمار الأرض بالعمل، والعلم، والقيم، يجب أن يكون قاعدة المجتمع الإسلامي والفكر الإسلامي، ويجب أن تلحظ "كرامة الإنسان" عند وضع النظم وعند ممارستها.

3- الأساس في فهم الإسلام والتعرف على هدى واستخلاص أحكامه هو القرآن الكريم دون الالتزام ـ ضرورة - بما وضعه المفسرون من أحكام شلت بعض الآيات بالنسخ المزعوم وكيَّفت آيات أخرى بأسباب النزول، فضلا عن الإسرائيليات التي حُشيت به التفاسير، وعلى كل حال فمن المسلم به أن النص القرآني المقدس شيء - والتفسير والتأويل شيء آخر ولا يمكن معاملتهما على قدم المساواة.

كما أن المبادئ التي وضعها الفقهاء لأصول الفقه، والمحدثون في الجرح والتعديل ومصطلح الحديث.. الخ، كلها في حاجة إلى إعادة النظر، لأن السلف ليس معصومًا، وقد كان محكومًا وهو يضع مناهجه ويصل إلى نتائجه بروح العصر وبقلة المعلومات، ونحن اليوم أقدر على فهم حكمة التشريع واستخلاص النتائج بفضل ما تيسر من وسائل الطبع والنشر والإحصاء والتصنيف معًا لم يكن متاحًا للسلف، فضلا عن أننا مأمورون بالتفكير، منهيون عن التقليد واتباع الآباء والأجداد.

4- التعددية طابع الإسلام، لأن التوحيد صفة الله تعالى التي استأثر بها ولا يشاركه فيها أحد أو شيء، أما بقية الكائنات فإنها تكونت على الأقل "من زوجين" أو تضمنت عددًا من العناصر.

وإنما كانت التعددية طابع الإسلام لأنه منهج حياة يضم ما فيها من اقتصاد واجتماع وسياسة.. الخ، ولأنه دين البشرية.. ما مضى منها وما سيأتي، ولا بد في مثل هذا من التعددية. ولهذا أيضًا كان المثل الإسلامي الأعلى هو العدل، لأن العدل يفترض التعددية، ويصبح هو فضيلتها.

وتظهر التعددية في الاستخدام القرآني المعجز للكلمات والألفاظ الذي يفتح الباب أمام تأويلات عديدة ومتفاوتة أراد الله بها أن يجد كل جيل ما ينفق مع مستواه وتقدمه، ولا يجوز مصادرة آية بآية أخرى.. لأن القرآن لا يضرب بعضه بعضًا، وإنما يكمل بعضه بعضًا.

كما تظهر التعددية في "انفتاح الإسلام" واستهدافه الحكمة أينما كانت، واعترافه بالأديان والاختلاف في الآراء ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً**﴾.

وقد أدى عدم تعمق هذا المعنى في ذهن الأسلاف إلى أخذهم بفكرة "النسخ" ومحاولتهم التقريب بين النصوص المختلفة أو استبعاد بعضها، والأمر في حقيقته غير ذلك، فتعدد النصوص وتفاوتها صورة من تعددية الإسلام أراد الله تعالى بها الفسحة والسعة في دائرة الاختيار ما بين بدائل متعددة.

5- **إن القرآن الكريم عندما اعتمد "المعروف" و"المنكر"، أضفى غلالة إنسانية رقيقة على الشريعة، وجعل الرأي العام من مصادرها**، وأي محاولة للحجر على هذين التعبيرين أو إعطائهما معنى معينًا إنما هي افتيات على النص، إذ لو أراد الله تعالى تحديدًا لوضع تعبيرًا آخر، ولكنه تعالى أراد بهذا التعبير أن يحقق المرونة والسعة في جوانب من التشريع بما يتفق مع التطور. وقد يثار احتمال تضارب النص مع مفهوم المعروف السائد عند قوم ما، أو عهد ما، والرد أن هذا لا يحدث بالنسبة للكليات والثوابت، فلن يكون الظلم والجهل والشرك والكذب معروفًا أبدًا، ولكنه يحدث بالنسبة للتقاليد والعادات الاجتماعية،

كـالزي والـذوق، وعندئـذ **تصـبح القضـية هي "فهم النص في إطـار المعـروف"، أو الأخـذ بـالمعروف باعتبـاره مـا أمـر بـه النص نفسـه بالأخذ به في إطار التعددية التي يسمح بها الإسلام.**

والمهم أن لا يكون هناك اختيان أو استسلام للهوى عند تحديد المعـروف والمنكـر، مع التسليم بأن الاختيان والاستسلام نسبيان، فما يدخل في إطارهما في عصـر سـابق لا يدخل في إطارهما في عصر لاحق، يجاوزهما.. والقلب السليم هو الفيصل.

6- حرية الفكر والاعتقاد مطلقة يكفلها الإسلام إلى آخر مـدى.. فمن شـاء فليـؤمن، ومن شاء فليكفر.. ومـذهب الإسـلام في هـذا أن حريـة الفكـر هي الطريـق إلى الإيمان، فلا إيمـان يقـوم على جهالـة، أو يفـرض قسـرًا... **وإذا كان المجتمـع الإسـلامي هـو مجتمـع العقيـدة، فإنـه بالتبعيـة والضـرورة مجتمـع الحرية، فلا عقيدة دون حرية، ولا إيمان دون نية... وحرية الفكر هي التي تكفل** الحيوية للعقيدة وتحول دون أن تتحول إلى "بركة آسنة". وإذا أردنا أن نعزز الإيمان فبالمنطق والبرهان، لا بالقمع والسلطان، وفي مجال المقـولات لا على أشخاص القائلين!

ولا يجوز مطلقًا تكفير آخـرين، أو الافتيـات على عقائـدهم.. فهـذا مـا اسـتأثر اللـه تعالى وحده بالحكم فيه يوم القيامة، ولا يحاسـب النـاس في الـدنيا على مـا يؤمنـون، ولكن على ما يعملون...

7- أبرز القرآن الكريم قداسة العلم عندما أمـر الملائكـة أن تسـجد لآدم لأنـه علمـه "الأسماء كلها"، وتحدثت الآيتـان 27 و 28 من سـورة فـاطر عن شـموله، وأمـر الرسول بطلبه أينما كان (ولو في الصين)... [5].

ومن هنا يجب على الفقهـاء أن لا يقنعـوا بثقـافتهم الدينيـة التقليديـة لأنهـا لم تعـد كفاية، وعليهم أن يلموا ويستوعبوا بقدر ما يمكن من ثقافات العصر، ولا يصدنهم عنهـا أنهـا أمريكيـة أو هنديـة أو أوروبيـة... لأنهـا كلهـا "معرفـة" تسـهم في حـل المشـكلات والنهضة بالمجتمع والتجاوب مع العصر، كلها حكمة نحن أحـق بهـا أينمـا كـانت، وكيـف يمكن لفقيه أن يفتي في قضية الربـا وهـو يجهـل آليـات البنـوك ودورهـا في الاقتصـاد الحديث؟

8- ~~يعمل الإسلام على مستويين: فهو يضع المثـال الـذي يفـترض أنـه يسـتهدفه الإنسان، ثم هو يعترف بالواقع الذي تتحكم فيه الضرورات ويخضع لسلسـلة معقـدة من العوامـل بعضـها يعـود إلى الفـرد وبعضـها إلى الظـروف والملابسـات.. الخ، ويضـع الإسـلام "آليـات"أو "ميكـانزم" للتفاعـل مـا بين المثال والواقع، ومن مفردات هذه الآليات:~~

(1) اعتبار التيسير أصلا في الممارسة، والوسع أصلا في التكليف.

(2) المقاصة التي تقوم على مبدأ **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**.

(3) ملاحظة الأولويات...

(4) ملاحظة الضرورات..

(5) الاستغفار..

(6) التوبة...

---

5 **(?) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَـالِ جُـدَدٌ بِيضٌ وَحُمْـرٌ مُّخْتَلِـفٌ أَلْوَانُهَـا وَغَـرَابِيبُ سُـودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالـدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ .**

وهذه الآليات تسع كل التصرفات التي لا تتفق مع المثال ويصدر فقهاء التقليد أحكامًا صارمة عليها!.

9- إن هذا يعطينا مدخلا إزاء المستجدات في المجتمع. كالسينما، والمسرح، والتليفزيون، والصور المختلفة للهو والترفيه التي لم تكن معهودة في العصور الأولى، ومجالات الجمال المفقودة في المجتمع الإسلامي، فبعضها قد يتجافى مع المثال، ولكن يقبل على أساس الواقع، ويتعامل معه بالآليات المشار إليها آنفًا.. وقد يعد بعضها من "اللمم" الذي لم يستبعد القرآن وقوع المؤمنين فيه ﴿**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ**﴾ ولأبي هريرة رأي عن اللمم يجعله كل ما هو دون الزنا الصريح [6].

وفي الوقت الذي يقف فيه الإسلام هذا الموقف من الضعف الإنساني باعتباره جانبًا من جوانب الطبيعة البشرية.. فإنه يتوقع من الذين يلمون به أن يضاعفوا الحسنات والعمل الصالح ليوجدوا نوعًا من الموازنة والمقاصة.

على أن الإسلام إذا تسامح مع الضعف البشري بتلك الضوابط المشار إليها، فإنه لا يتسامح مع الشر كالاستغلال والظلم وإذلال الناس.

10- لا بد من الاعتراف بأن الفكر التقليدي لدى الفقهاء عن المرأة قد ظلمها ظلمًا شديدًا وجنى عليها لقرون متتالية، وكان هذا من أسباب تخلف المسلمين..

وقد حكمت التقاليد، وليس الإسلام، كل ما يتعلق بالمرأة حتى اليوم.. وآراء بعض الفقهاء عن المرأة يجعلها اليوم متخلفة عما كانت عليه أيام الرسول، وتعارض معارضة حادة روح القرآن وصريح الآيات..

إن كل ما يورده فقهاء التقليد عن الحجاب، والاختلاط، والزواج والطلاق، والزي، والزينة يحتاج إلى مراجعة شاملة حتى يعود مرة أخرى إلى روح الإسلام الذي عبرت عنها البنود السابقة.

* * *

ج - وبالنسبة للكتاب والمفكرين [7]:

1- لا بد لكل من يعمل في مجال الفكر والإعلام والدعوة والسياسة أن يعلم أن مصر هي بلد الإيمان، وأن الدين هو أبرز مقوماتها.. إن الشخصية المصرية تكونت تكونًا إيمانيًا على امتداد ثلاثة آلاف سنة متصلة قبل أي غزو خارجي، فامتزجت الشخصية بالدين، وكان الدين طوال هذه المدة هو محور المجتمع...

2- إن إيمان مصر بالإسلام لم يكن مصادفة أو اعتباطًا، ولكنه كان أمرًا مقضيًا، ولا بد منه لتتم مسيرتها الدينية، وليأخذ تصورها القديم عن الخلود والعدالة الصورة المثلى، والأخيرة، فقد وجدت مصر في الإسلام دينها، ووجد الإسلام في مصر وطنه .

وتجاهل إسلامية مصر هو حرمانها من الهوية والاسم والحضارة والشخصية المميزة لها وقطعها من تاريخها وأمجادها.

3- لهذا فإن أية فكرة عن دولة علمانية، ينفصل فيه التوجيه الديني عن الحياة والمجتمع، أو يكون الدين مجرد علاقة خاصة بين الفرد والله دون تأثير على الاقتصاد والسياسة والاجتماع، فكرة مرفوضة تمامًا، ولن تقبلها مصر بحكم شخصيتها الإيمانية، كما سيرفضها الإسلام بحكم طبيعته.. لقد كانت مصر ـ وستظل ـ دولة إسلامية.

4- ليس هناك مبرر - على الإطلاق - للخوف من سوءات "الدولة الدينية"ـ فهي منتفية من الإسلام؛ لأنه عقلاني الطبيعة يجعل معجزته كتابًا ويستبعد المؤسسة

---

6 (?) المستدرك للحاكم ص 246 ج 4 وقال: "هذا حديث صحيح ولم يخرجاه".

7 (?) نقلاً من كتابنا "كلا ثم كلا" من ص 253 إلى ص 256.

الدينية المحتكرة، ويقيم فكرته عن الله على الفطرة السليمة، لا اللاهوت الذي لا يفهمه إلا رجال الدين.

5- إن الإسلام كجذر للمجتمع المصري ومقوم للشخصية يتمحور حول القيم الحضارية للإسلام، وهي الضمير للفرد، والحرية للفكر، والعدالة في الاقتصاد والشورى في السياسة.. وأن يكون الحق هو المثل الأعلى للقيم، والعدل هو المثل الأعلى للنظم.

والأديان بصفة عامة هي أصل الفنون والآداب واستلهام الخير والفضيلة ومكانها مطلوب في كل مجتمع.

6- إن وجود أقلية 5 % - 7 % قبطية في مصر لا تغير الحقائق.. فالأقليات موجودة في كل العالم ولا يمس وجوها حقوق الأغلبية، والإسلام كحضارة إرث لكل البشرية، وليس للمسلمين وحدهم، ولغير المسلمين حق فيه، وقيمه الحضارية تكليل للقيم الحضارية في الأديان جميعًا، وقد كفل حقوق غير المسلم بتقريره حرية الاعتقاد، وليس فيه حساسية للآخرين وهو يسعهم تحت مظلة **"لهم ما لنا وعليهم ما علينا"،** ويمكن للأقباط أن يصلوا إلى أعلا المناصب تحت "شعار **"قبطي دينًا ومسلم وطنًا"** وهو على كل حال أفضل من العلمانية التي تضعهم تحت رحمة الأغلبية النزقة.

أما إذا آثروا التقوقع ـ كأقلية ــ فإن الإسلام يكفل لهم فوق ما تكفله القوانين الأوربية من حقوق وحمايات للأقليات.

7- لا بد لدعاة التنوير أن يقلعوا عن عبادة الآلهة الزائفة.. إن الاشتراكية بالصورة التي دعا إليها ماركس وطبقها لينين، والقومية التي ظهرت خلال القرون الأخيرة قد أصبحت من سقط المتاع.. أما الحضارة الأوروبية فيجب النظر إليها في مضمون تجاوبها مع الطبيعة والقيم المصرية..

8- لا بد لدعاة التنوير أن يغسلوا أيديهم من قاذورات الناصرية، وأن يعترفوا بما قامت عليه من زيف وما أدت إليه من كوارث على الوطن والمواطنين، وأن يبدأوا بداية جديدة سليمة لا تقبل زيفًا، ولا تقوم على باطل فما قام على الباطل فهو باطل ولا مجاملة في الحق.

9- لا بد من تضافر الجهود للقضاء على السوءات التي غرستها الناصرية في المجتمع المصري مثل: ديكتاتورية الحاكم وتأليهه، وانفراد حزب بالحكم، والدولة البوليسية، وإهدار كرامة المواطنين، وتقييد الحريات، وتزييف الانتخابات، والفساد والتستر وراء الحصانات والمناصب والسوءات التي جرها الانفتاح الطليق من تضخم الثروات الطفيلية والمشبوهة.. وارتفاع الأسعار ومشكلات البطالة والإسكان.. الخ والقيم الحضارية للإسلام هي خير ما يقودنا وسط متاهة النظم والمذهبيات..

10- نشأ معظم دعاة التنوير في أحضان الصحافة، وهي ــ إلى حد كبير ـ مدرسة الغوغائية، والانتهازية، والسطحية، والجري وراء الإثارة والتصفيق والتهليل للحاكم.. الخ.. وتأثروا بهذا الطابع قدر ما بعدوا عن الجد والعمق، والإخلاص، وقد يصور هذا: الفرق بين "أخبار" أمين الرافعي في العشرينات، و"أخبار" إبراهيم سعدة" اليوم، ولا ينفي هذا وجود صحافة جادة محدودة جدًا، وفي صحف المعارضة.

ولا بد للصحفيين المصريين أن يثقفوا أنفسهم ثقافة جادة وعميقة، وأن يجعلوا الصدق والحقيقة هدفهم، وأن يتخلصوا من الآثار السيئة لصحافة الإثارة والصحافة الصفراء، وصحافة التبعية للحاكم وصحافة الابتزاز والارتزاق الخ...

الفصل السادس
المشروع الحضاري والعالم من حولنا

لا بـد لاسـتكمال الموضـوع من الكشـف عن البعـد العـربي والـدولي للمشـروع الحضاري، فمع أنه خاص بمصر فإن المؤثرات الدولية لم تعد عاملا يمكن إغفالــه، ولم يعد ممكنًا لدولـة أن تنـأى بنفسـها عن الدولـة الأخـرى والأوضـاع الدوليـة أو تنجـو من آثارها..

وقد كان تأثير مجموعة الدول العربية من القـوة بحيث جعـل المشـروع الحضـاري المصري يرتبط حينًا بفكرة "القومية العربية". إن مصر بحكم وضعها الجغـرافي الـذي يتوسـط العـالم العـربي، وبحكم تاريخهـا ووزنهـا.. الخ. مـا كـان يمكن أن تتجاهـل مسئوليتها التاريخية نحو الدول العربية فضلا عن أن دعوات تحريـر هـذه الـدول قـامت في مصر في أوائل القرن عندما كانت هذه الدول في إسار الاستبداد الـتركي، وكـانت مصر وحدها هي واحة الحرية فجاءوا إليها زرافات ووحدانًا من مختلـف دول المنطقـة. وقـامت مصـر بـدور الأخت الكبـيرة أو حـتى الأم لـدول عربيـة وليـدة بـدءًا من التكيـة المصرية في السعودية في الثلاثينيات، حـتى مناصـرة الثـورة الجزائريـة وحـرب اليمن في الستينيات.

ولكن أحداثًا عديدة وخطيرة حـدثت كـان بعضـها من عمـل الاسـتعمار الـذي حـدد الحدود قبل أن تترك جيوشه الدول العربية بصـورة تثـير المنازعـات، أو غـرس عملاءه في أعلى المناصب. كما كان بعضها يعود إلى التطـورات الـتي حـدثت بصـورة لم تكن منتظرة كاكتشاف البترول في السعودية والخليج والعراق.

وجعل المشروع الحضاري لمصر في عهد عبد الناصر من القوميـة العربيـة قاعـدة له، وتبني كل فئات المعارضة للأوضاع القائمة في الدول العربية، نشأت حـرب مريـرة بينه وبين النظم العربية الحاكمة، ومع أن هذه النظم كانت سيئة ظالمة، فإن حكم عبد الناصر في بعض جوانبه لم يكن أفضل منها، ولهـذا فـإن تبنيـه للمعارضـة لم يكن على أسس موضوعية أو يقـوم على إيمـان حقيقي، ولكنـه كـان جـزءًا من سياسـة التوسـع والطمـوح الـتي تسـاور الحكـام عنـدما يصـلون إلى درجـة من التضـخم، ويوجـد تحت تصرفهم قوى كبيرة. وبالإضافة إلى الشعارات المثيرة فـإن السـلاح الأعظم للناصـرية كما هو اصطناع عناصر المعارضـة بالمـال. وكـان أي صـعلوك عـربي يمكن أن يحصـل على فيلا أو شقة في مصـر الجديـدة أو من العمـارات المصـادرة وراتب شـهري، كمـا بذلت الأموال بسخاء على الصحف في بيروت وغيرها.

وقد كان يمكن لحزب البعث أن يقول إنه أولى بالقوميـة العربيـة من عبـد الناصر الذي لم يعرف عنه أبدًا تعاطف عربي في السنوات الأولى لحركته، وإنه لم يقم مُنَظِّر مصري لقوميـة عربيـة كالـذين أظهـرهم حـزب البعث، ولكن يـرد على هـذا أن حـزب البعث رغم وضعه لمخطط القومية العربية على أساس نظري، وأنـه عنـدما ظهـر في سوريا والعراق، وهما البيئة الخصبة للقوميـة العربية، كـان بالفعـل أقـدر الهيئـات على وضع تنظير للقومية العربية، بيد أنـه وقـع في خطـأ قاتـل، هـو تجاهلـه لـدور الإسـلام، فبعضـهم لم يكن مسـلمًا كميشـيل عفلق، والبعض الآخـر مثـل ذكي الأرسـوزي كـان يفضل الجاهلية على الإسلام، وتأثر الجميع بالآراء الأوربية وبعض التوجهات الاشـتراكية فكانت الصـيغة الـتي جـاءوا بهـا بعيـدة عن وجـدان الشـعب العـربي حـتى في سـوريا والعراق وهما مهد فكرة القومية العربية في العصـر الحـديث، ولمـا لم تـرزق الفكـرة

تجاوب الجماهير ذهب بها أصحابها إلى العسكر الذين أيدوها بأسنة الحراب وكانت المأساة المزدوجة: فساد الحكم العسكري في كل من سوريا والعراق. والحرب المريرة التي قامت بين البلدين الشقيقين من قبل.

أما عبد الناصر فلم ير في القومية العربية سوى مظلة لمد نفوذه وحكمه على الدول العربية.

ولهذا كانت قضية القومية العربية "مضروبة" أينما نظرت إليها.

وأي قومية عربية يتحدثون عنها والأسوار تفصل بين الدول العربية بعضها بعضًا، ولا تمكن واحدًا أن يدخلها إلا بشق الأنفس، والتجارة بين الدول العربية لا تزيد عن 5 % من مجموعة تجارتها، والصحف والكتب تصادر وتمنع من الدخول.

وعندما بدأ السادات حرب رمضان وجد حوله مجموعة من الحكام العرب أقرب إلى السفاحين والطغاة والقبليين وقد ساموا شعوبهم الخسف والعسف، وكانوا بين من يعمل لتعميق حكمه، أو من يطبق سياسة الذين جاءوا به، وكشفت عن ذلك مواقفهم تجاه أعز قضية قومية عربية هي فلسطين، إذ استغلوها لمآربهم وجعلوها ورقة للضغط بها والمساومة عليها، وقتلوا من الفلسطينيين أضعاف من قتلتهم إسرائيل؛ فبرهنوا على أنهم لا يعملون إلا لمصالحهم الخاصة، وأنهم وقد استباحوا تدمير حماة بالطيران والمدافع وقتل الشيعة والأكراد بالغازات السامة في جنوب العراق وحلبجة، لا يترددون في فعل شيء من منطلق دفاعهم عن مصالحهم.

وتملكهم الغيظ والحسد من انتصار رمضان فرفضوا الفكرة الواضحة كالشمس: ضرورة استثمار هذا الانتصار قبل أن يبرد في تقليص الوجود الإسرائيلي وجعله في أضيق الحدود. ومع أنهم كانوا جميعًا يكررون كالببغاوات. "تصفية آثار العدوان"، والعودة إلى حدود ما قبل 1967، فإنهم عندما عمل السادات لذلك غلبت عليهم الأثرة والأنانية وأعمت أعينهم عن رؤية المستقبل البعيد فثاروا ثورة رجل واحد وقادهم زعيم العراق الذي كان يريد أن يتسيد المنطقة، وظن بعضهم أنه فحل العرب، وكان هذا الموقف إيذانًا بتفكك القومية العربية، ثم جاءت حرب الخليج فأجهزت عليها.

ويريد بعض المفكرين أن يتضمن المشروع الحضاري المصري خطأ "عروبيًا"، ولا جدال في أن تكتلا عربيًا تكون نواته مصر هو الذي يمكن أن يقف أمام التكتلات الكبرى، ولكن ما العمل والنظم العربية الحاكمة فاسدة حتى النخاع، ولا أمل مطلقًا في أي تغيير ما دامت مسيطرة؛ لأنها هي التي تحول دون أي مشروع حضاري لارتباطها مع الاستعمار أو حماية لمصالحها ومغانمها الخاصة أو حراسة لسلطانها على شعوبها. وسيصم التاريخ كل الذين حكموا مصر وليبيا والسودان بالغباء والقصور والغفلة؛ لأن أيًا منهم لم يعمل لتكون هذه المنطقة دولة واحدة، رغم كل العوامل التي كانت مهيأة وتيسر التنفيذ. لهذا فلا فائدة من أي إشارة في مشروع حضاري مصري إلى قومية عربية أو تكتل عربي ما لم تتحرر الشعوب العربية من حكم طغاتها وسجانيها، وما لم يكن مفهومًا أن القومية العربية هي إحدى أطر الإسلامية.

* * *

على أن قضية القومية العربية تهون أمام الغزو العالمي الكاسح الذي كاد أن يقضي على فكرة سيادة الدولة واستخدم القوة العسكرية التي تجعل سماء الدول مفتوحة أمام الطيران ووسائل التجسس وحاملات الصواريخ، ...الخ، وأبرم الاتفاقيات الاقتصادية التي تحرم الدول من الدفاع عن صناعاتها بدعم أو حماية جمركية، وقد رأينا كيف أن القوى الدولية فرضت على ليبيا والعراق عقوبات اقتصادية طبقتها كل الدول العربية بلا استثناء، كما رأينا أن التحيز الأمريكي لإسرائيل مكنها من أن تنال مطالبها وحال دون قيام الدولة الفلسطينية المشروعة، وأسوأ من هذا كيف أن هذه

القوى الدولية حرمت على البوسـنة والهرسـك التسـليح فسـلمتها إلى أعـدائها الألـداء الذين يتوفر لهم السلاح والعتاد وأغمضت العيون عن المذابح والجـرائم، وفي الميـدان الاقتصادي فإن توقيع الدول العربية على اتفاقية الجات سـتجعلها أرضًـا مفتوحـة أمـام كل المنتجات الأوربية والأمريكية بما في ذلك السينما والتلفزيون ... الخ.

إن الثورة العلمية الجديدة التي تفوق الثورة الصناعية الـتي بـدأت في إنجلـترا في الثلث الأول من القرن الثامن عشر يمكن أن تقضـي على الاسـتقلال الاقتصـادي لكـل الدول النامية لأنها لا تستطيع أن تحمي منتجاتها الخاصة.

هذه التحديات هي التي يجب أن يضعها المشروع الحضاري المصري نصـب عينيـه لأنهـا هي التي تهدده في الصميم، أما الرغاء العقيم عن القومية العربية فلا يجدي شيئًا.

خاتمة
لا بد من إيمان عظيم....

نعتقد أن القارئ قد أخذ فكرة وافية بقدر ما سمح بـه هـذا المـوجز عن المشـروع الحضاري المطلوب، وعن مقوماته، وعن الجهات التي تتولاه، والمبادئ التي تلتزم بهـا كل جهة ليكمل المشروع بعضه بعضًا ويكون كلا واحدًا متماسكًا شاملا.

ولكن هناك نقطة هامة لم نطرق إليها حتى الآن هي:

كيف سيمكن عمليًا وفعليًـا تحقيـق هـذا المشـروع والانتقـال بـه من عالم الحروف والكلمات إلى عالم الأعمال والإنجازات؟

إننـا نقـرأ بين الفينـة والفينـة أنبـاء عديـدة عن نـدوات ومحاضـرات عن المشـروع الحضاري. وقد تبنت جريدة الأهرام مثل هذا المشروع وعقدت له بعض النـدوات الـتي تضـمنت مناقشـات لجـوانب الموضـوع أدلى بهـا الخـبراء وأسـاتذة الجامعـات ورجـال الاقتصاد.. كما نقرأ في صفحة "الحوار القومي" بجريدة الأهـرام وغيرهـا من الصـحف مقــالات طويلــة وبحوثًــا مستفيضــة حافلــة بالإحصــائيات والأرقــام والاستشــهادات والخطط... الخ. ونظمت الجمعية الفلسفية المصرية في يونيو سنة 1992 نـدوة ألقى فيها 55 بحثًا..

ونحن نقول إن هذه "الأوراق الثقافية" مطلوبة وتسد ناحية من نـواحي المشـكلة، حتى وإن لم تجابه القضية مجابهة صريحة وتهربت من نقاط الحساسية.

ولكن الحقيقة أن هذه البحوث لا تنقصنا بل المحـاولات الـتي قـامت لتطـبيق هـذه البحوث أيضًا لا تنقصنا. ولا تزال في الأذهان ذكريات مشروعات "**النهضة**" و"**الثورة الإدارية**" و"**مشروع الألف يوم**" وغيرها من المشروعات الـتي مـا إن تظهـر حـتى تتلقفها البيروقراطية لتجهز عليها المصالح المكتسبة والفئات المسـتفيدة من الأوضـاع القائمة.

وسواء أكانت هذه البحوث التي توصلت إليها جريدة الأهرام أو غيرها، أو حتى ما دبجناه في هذا الموجز كاملة أو ناقصة حسنة أو سيئة فيظل السؤال الهام كيف يمكن التحقيق؟؟.

هنا لا تملك هذه البحوث شيئًا ولا يهتدي أصحابها من الخـبراء سـبيلا وتظـل الأمـور على ما هي عليه، وتصبح هذه البحوث تلالا من الورق، ويضيع هدرًا كل ما أنفق عليهما من وقت وجهد ومال.

تعلمنا الطبيعة المادية ونواميس الكون والطبيعـة الإنسـانية أيضًـا أن القصور الذاتي غالب، وأن قانون الجاذبية الأرضية يحـول دون أن يتحـرر منه أي جسم ما لم يملك هـذا الجسـم قـوة انـدفاع وسـرعة تفـوق قـوة الجاذبية، فإذا لم يملك هذه القوة فإن قانون الجاذبيـة يعيـده إلى الأرض ليسقط ويتهاوى.

إن الطـائرة لا يمكن أن ترتفـع من الأرض إلى السـماء إلا بـالقوة الجبـارة الـتي يولدها احتراق آلاف الجالونات من البنزين.. وبدونها فستظل الطائرة على الأرض رغم سلامة كل أجهزتها واستكمال ركابها.

والسؤال الهام كل الأهمية هو: من أين تأتي بهذه القوة التي تنتشل هـذه البحـوث من جاذبية الواقع، وقبضة المصالح المكتسبة، وغلبة القصور الذاتي والسلبية؟؟

إن هذا القوة موجودة ـ واسمها الإيمان.

فإن لم يؤمن الشعب بالمشروع الحضاري ويعقد العزم على تحقيقه، فلن تفيد شيئًا هذه المخططات والجداول والإحصائيات.

إن الإيمان العظيم هو الطاقة المحركة التي تدفع الجموع لتحقيق إرادة التغيير، ولتحويل المشروعات من سطور على ورق إلى إنجازات وينقلها من المكاتب إلى الحقول والمصانع..

إن هذا الإيمان أشبه بالوقود الذي يرتفع بالطائرة من أرض الواقع ـ بأثقالها وأحمالها ـ لتحلق في السماوات العليا وبدونه لا يمكن لها أن ترتفع وتنطلق وتطير بسرعة مئات الأميال في الساعة.

إن الإيمان العظيم هو المفاعل الذي يبلور ضمير الأمة وإرادتها ويحولها إلى طاقة تكتسح كل الصعوبات وتجاوز كل العراقيل.

إنه لا يمكن أن يشتري أو يباع لأنه فكر وعاطفة وروح.. وما لم يتوفر لنا هذا الإيمان فسنظل في قبضة المكتبيين الذين يأتوننا يومًا بعد يوم بأوراقهم الثقافية وبالبيروقراطيين الذين يعطلون المشروعات ويوقفون الأعمال. وبالانتهازيين والفاسدين الذين يستغلون كل هذا العقم والسلبية لحساباتهم الخاصة.

* * *

وإذا شئت فراجع تاريخ نهضات الأمم والشعوب، فحتى الرأسمالية التي ليس لها نظرية ولا تقوم على قيم روحية، كان وراءها إيمان عظيم تملك روادها. إيمان بالعمل والمغامرة والإنجاز والإبداع والإقدام وارتبطت حينًا بالمصلحة القومية لبلادها كما يوضح ذلك تاريخ جمعيات التجار المغامرين التي ظهرت في بريطانيا في القرن السادس عشر والتي نشرت قلوع سفنها على بحار العالم ومحيطاته.

وكان الرأسمالي النمطي هو الذكي المقدام المغامر الذي يبحث عن كل جديد ويعمل ساعات طوال، ويعيد استثمار ما يكسبه..

أو خذ عندك القبائل العربية المتناحرة التي كانت تمزقها العداوات وقد جاءها الإسلام فوحدها الرسول وأعطاها "الكتاب والميزان" لتخلق العالم خلقًا جديدًا.

أو خذ روسيا القيصرية المتأخرة المتخلفة عن أوربا والتي كان بسمارك يطلق عليها "اللاشيء الكبير!!" وقد تقمصتها روح جديدة جعلتها تنفض كل غشاواتها وتعمل بإيمان جديد..

أو خذ اليابان وقد طرق عليها الكومدور الأمريكي بيري أبوابها المغلقة في منتصف القرن التاسع عشر؛ فأيقظها من عالم القرون الوسطى فانطلقت تأخذ من أوربا علومها..

وتبني صناعاتها حتى هزمت روسيا سنة 1904 وأخذت تصعد. وعندما قامت الحرب العالمية الثانية ألحقت اليابان الخسائر بالولايات المتحدة وهزمتها في كل معركة حتى تسلحت الولايات المتحدة بالقنبلة الذرية فاستسلمت اليابان.. ولكن لتعيد بناء نفسها حتى أصبحت اليوم أقوى اقتصاديًا من الولايات المتحدة نفسها..

في كل هذه الأمثلة لم يكن المال.. أو الخطة أو كتابات العاكفين على أوراقهم هي التي بدأت الانطلاقة والنهضة، ولكن كان الإيمان العظيم.

* * *

إن ما ينقصنا هو هذا الإيمان.

إن هذا الإيمان هو الذي سيكفل لنا:

1- الطاقة الدافعة التي تحرك الجماهير لكي تحارب بروح جهاد مقدس، واستشـهاد في معركة من نوع جديد هي المعركة ضـد التخلـف والجهالـة والفاقة؛ لأنهـا في هذا العصر هي المعركة في سبيل الله والرسول والإسلام.

2- صهر الاختلافات وتوحيد الإرادات؛ لأن الإيمان بوتقة، وفي هذه البوتقة تنصــهر إرادات الأفراد والفروق والاختلافات في الإرادة العامة - إرادة الأمة.

استدراك التخلف وكسب الوقت ومحاولة اللحـاق بـركب التقـدم الحـثيث، وبـدون ذلك ستتسع الهوة والفجوة ما بين الأمم المتقدمة والأمم المتخلفة.